الملخص: من صور إعجاز القرآن الكريم، اعتبار خصوصية قيد لفظ: (ماء) بنعوت متنوعة، اقتضتها سياقات ومقامات بعينها، ووراء أَكَمَة تلك القيود في القرآن الكريم بلاغة تتفجر ينابيعها مدرارة من خلال تعقُّب الدلالات بتدبرٍ وأناة، فللقيود أثرها في ابتناء صور المعاني، إنها تخصص الدلالة وتوجهها في اتجاه بعينه، كما أنها تؤكدها وتوضحها، بل وتضفي على المقيَّد سمات محددة. والقيود جزء أصيل في بناء العبارة، وهل العبارة في العربية سوى مسند ومسند إليه وقيود؟! وقد جاءت دراستي هذه تحت عنوان: (بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت في القرآن الكريم) إذ حصرت ثم درست النماذج التي تمثل الدراسة، وذلك على سبيل الاستقراء التام. وقد أتت دراستي هذه في مقدمة، ومهاد نظري، وأربعة مباحث. ثم الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث، ثم الفهارس. أما عن المنهج، فقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: (بلاغة – قيد – لفظ – ماء– النعت – القرآن – الكريم).

Abstract: One of the manifestations of the Qur'an's miraculous nature is the particularity of modifying the word "water" with various adjectives, determined by specific contexts and tailored to particular situations. Behind this abundance of modifying adjectives in the Qur'an lies a rich and vibrant rhetoric and profound eloquence. Such restricting modifiers play a pivotal role in constructing the imagery of meanings. They specialize, direct, emphasize, and clarify the intended meanings, while imparting specific attributes to the modified noun. Modifying attributes are an integral part of sentence structure. Indeed, an Arabic sentence is nothing but a predicate, a subject, and modifiers. This study, titled "The Rhetoric of Modifying the Word: (Water) with Adjectives in the Ever-Glorious Quran," systematically identifies and analyzes instances of this phenomenon through comprehensive inductive research. The study is structured into an introduction, a theoretical framework, sixteen subsections, and a conclusion summarizing the most significant findings, followed by indexes. Regarding the methodology, this research adopts a descriptive-analytical approach.

Keywords: Rhetoric, Modification, Water, Adjectives, the Ever-Glorious Qur'an.

مقدمـــــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وبعد:

فلا تزال دوحة القرآن الكريم جنَّةً فينانةً ورقاء، أشجارها وارفة، وثمارها يانعة، وقطوفها دانية، إنها معجزة بيانية لا تنقضي عجائبها، ولا تبلى محاسنها، بل تبقى متجددة خالدة، تشهد بآيات الإعجاز، وأمارات صدق الرسالة والرسول.

ومن صور إعجاز القرآن الكريم، اعتبار خَصوصية قيد لفظ: (ماء) بنعوت متنوعة، اقتضتها سياقات ومقامات بعينها، ووراء أَكَمَة تلك القيود في القرآن الكريم بلاغة غضة يانعة، فللقيود أثرها في ابتناء صور المعاني، فهي تخصص الدلالة وتوجهها في اتجاه بعينه، بل وتؤكدها وتوضحها، كما تُضفي على المقيَّد سمات محددة. ولا شك أن القيود جزء أصيل في بناء العبارة، وهل العبارة في العربية سوى مسند ومسند إليه وقيود؟!

هذا، وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع أمور، أهمها:

- إدراك الأسرار البلاغية وراء اعتبار البيان القرآني لخَصوصية قيد لفظ: (ماء) بالنعت.
- الوقوف على المقامات والسياقات التي اقتضت اعتبار البيان القرآني لخَصوصية قيد لفظ: (ماء) بالنعت.
- محاولة الوقوف على مناسبة قيود لفظ: (ماء) لمقاصد السور التي وردت بها.

أما عن الدراسات السابقة: فلم أقف على أي دراسة بلاغية تناولت هذا الموضوع بذاته، ولكن هناك دراسات سابقة، ذات صلة بدراسي هذه ، وهي على النحو التالي:

- (الإعجاز البلاغي في حديث القرآن الكريم عن الماء) للباحث/ طارق السيد طبل، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر، ٢٠٠٧م. وهي دراسة تحليلية للآيات التي ورد بها ذكر الماء على العموم في القرآن الكريم.
- (مواطن التذكير بنعمة الماء في القرآن الكريم – دراسة بلاغية تحليلية) للباحثة/ نوال سعود الفرهود، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن – الرياض، ٢٠٠م. وهي دراسة تحليلية لآيات التذكير بنعمة الماء في القرآن الكريم.
- (السياق وتنوع أوصاف الماء في القرآن الكريم)، د/ حسن طبل، بحث منشور بمجلة كلية دار العلوم – القاهرة، ٢٠٠٤م. ومطبوع ضمن كتاب: (حول الإعجاز البلاغي

للقرآن – قضايا ومباحث) مكتبة الإيمان – المنصورة، ط١، بدون تاريخ. وفي هذا البحث تناول المؤلف أوصاف الماء، من خلال جمع كل صفتين بينهما تشابه دلالي؛ للوقوف على الفروق الدلالية بينهما، مع الوقوف مع سياقهما، وتناول – كذلك – الوصف الذي لا شبيه له منفردًا، ولم يتعرض المؤلف لخَصوصية بلاغة قيد لفظ ماء بالنعت.

• (الدلالات اللغوية للماء في النص القرآني – دراسة بلاغية) للباحث/ لؤي حاتم يعقوب، بحث منشور بمجلة جامعة موش ألب أرسلان للعلوم الاجتماعية – تركيا، مجلد٢، العدد٢، ديسمبر، ٢٠١٤م. وفي هذا البحث جمع المؤلف لفظة: (الماء) واستعمالاتها في القرآن الكريم.

ولا شك أن واقع هذه البحوث، يؤكد أن بحثي يسد موضع لبنة شاغر في بنيان تلك النقطة البحثية، فلقد اتخذ لنفسه سبيلًا محددًا، ومنهجًا معينًا بين تلك الدراسات.

وتكمن مشكلة البحث: في أن لفظ: (ماء) ورد مقيدًا بالنعت في مقامات متنوعة في القرآن الكريم، وقد اقتضى كل مقام نعتًا بعينه، فتنوعت تلك النعوت.

وتهدف الدراسة الإجابة عن أسئلة، أهمها: ما المقامات والسياقات التي اقتضت اعتبار البيان القرآني لخَصوصية قيد لفظ: (ماء) بالنعت؟ وما الأسرار البلاغية وراء اعتبار البيان القرآني لتلك النعوت المتنوعة للفظ: (ماء) ؟ وما الخَصوصيات الدلالية للقيود التي قُيد بها لفظ: (ماء)؟ وكيف أتت تلك النعوت ملائمة لمقاصد السور التي وردت بها؟ وكيف أتت تلك النعوت ملائمة للمقاطع التي وردت بها؟ وإلى أي حدٍّ أثَّرت تلك القيود في المتلقين إقناعًا وإمتاعًا؟

كما تهدف الدراسة إلى: بيان الدلالات البلاغية لقيد لفظ: (ماء) بالنعت في القرآن الكريم.

هذا، وقد جاءت دراستي هذه تحت عنوان: (بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت في القرآن الكريم) إذ حصرتُ ثم درستُ النماذج التي تمثل الدراسة، وذلك على سبيل الاستقراء التام.

واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وبيان ذلك كما يلي: المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، وأهدافه، وكيفية تقسيمه، والمنهج المتبع في دراسته.

ثم المبحث الأول، وعنوانه: (القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية). وفيه ثلاثة مطالب: المطلب الأول: (القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية وأثرها في خلق الكون). المطلب الثاني: (القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية وأثرها في خلق الإنسان). المطلب الثالث: (القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية والاحتجاج بها على الكافرين). ثم المبحث الثاني، وعنوانه: (القيد بالنعت في سياق الوعد). ثم المبحث الثالث، وعنوانه: (القيد بالنعت في سياق الوعيد). ثم المبحث الرابع، وعنوانه: (القيد بالنعت في سياق تصوير الدنيا). ثم الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث، ثم الفهارس. أما عن المنهج، فقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

هذا، وأسأل الله . تعالى . أن يتقبل هذا العمل من عبده الفقير إلى منَّته، بحوله وقوته، وأن يجعله في الميزان يوم العرض الأكبر عليه – سبحانه –، إنه على كل شيء قدير، اللهم آمين.

مهاد نظري: تحرير المصطلحات

- **حقيقة القيد:**

يقول ابن منظور: "القَيْدُ: مَعْرُوفٌ، وَالْجَمْعُ أَقْيادٌ وقُيودٌ، وَقَدْ قَيَّدَه يُقَيِّدُه تَقْييدًا وقَيَّدْتُ الدابَّة. وَفَرَسٌ قَيْدُ الأَوابِد، أَي: أَنه لِسُرْعَتِهِ كأَنه يُقَيِّدُ الأَوابد، وَهِيَ الحُمُرُ الوحشيَّةُ بِلَحَاقِها... وقَيَّدَ العِلمَ بِالكِتابِ: ضَبَطَه؛ وَكَذَلِكَ قَيَّدَ الْكِتابَ بالشَّكْل: شَكَلَه، وَكِلاهُما عَلَى المَثَلِ. وتَقْييدُ الخَطِّ: تَنْقِيطُهُ وإِعجامه وشَكْلُه...والقِيادُ: حَبْلٌ تُقادُ بِهِ الدّابَّةُ"[١]. فالمادة –كما نرى – يدور معناها حول جعل شيء ما مقيدًا بقيد ما.

وأصل استعمال لفظ: (القيد) في الأمور المحسوسة، ثم توسعوا في استعمالها، فاستُعمِلت في المعنويات، من تقييد العلم بالكتابة، والكتب بالضبط، والخط بالنقط، ومن ذلك القيود التي تشتمل عليها تراكيب الكلام، فالجملة العربية تقوم على ركنين رئيسين، هما: (المسند والمسند إليه)، وما سوى ذلك فهو قيد في الكلام، ومن تلك القيود النعوت.

أما البلاغيون فيقولون: "القيد في الجملة عند علماء المعاني ما ليس مسندًا ولا مسندًا إليه ولا مضافًا إليه ولا صلة، والقيود في الجملة هي أدوات الشرط والنفي والمفاعيل والحال والتمييز والتوابع والنواسخ"[٢]. وتتجلى خَصوصية القيد في تربية الفائدة؛ لأن ازدياد التقييد يوجب ازدياد الخُصوص، وهو يوجب ازدياد البعد الموجِب لقوة الفائدة[٣]. فللقيد أثره البارز في بيان المعنى وتحديده، فكم من معنى تراه واسعًا مترامي الدلالة، فيأتي القيد، فيحدد دلالته، ويمضي بها في دائرة محدودة، يقول الإمام عبدالقاهر: "حُكْم كل ما عدا جزئي الجملة "الفعل والفاعل" و"المبتدأ والخبر"، أن يكون تخصيصًا للمعنى المثبت أو المنفي"[٤].

---

[١] لسان العرب، ابن منظور، تح/ عبد الله الكبير وأصحابه، (٣/٣٧٢وما بعدها)، ط دار المعارف – القاهرة، بدون تاريخ.

[٢] معجم البلاغة العربية، د/ بدوي طبانة، (ص٥٦٢)، ط دار المنارة – الرياض، ط الثالثة، ١٩٨٨م.

[٣] ينظر: كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، (ص١٥١وما بعدها)، المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة، ٢٠١٣م. وشروح التلخيص، (٢/٣٢وما بعدها)، ط دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، بدون تاريخ. وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الشيخ/ عبدالمتعال الصعيدي، (١/١٦٧)، مكتبة الآداب ـ القاهرة، ٢٠٠٥م.

[٤] دلائل الإعجاز، للإمام/ عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود شاكر، (ص٥٤٤)، ط المدني – القاهرة، دار المدني – جدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ.

• **حقيقة النعت:**

أما "النعت: فهو التابع الموضِّح متبوعه والمخصص له، بكونه دالًا على معنىً في المتبوع، نحو: مررت برجلٍ كريمٍ، أو في متعلق به، نحو: مررت برجلٍ كريمٍ أبوه"[١].

والنعت والصفة بمعنىً واحد، فابن السراج عَبَّر مرة بالنعت وأخرى بالصفة، إذ يقول: "النعت ينقسم بأقسام المنعوتِ في معرفته ونكرتِه، فنعتُ المعرفةِ معرفةٌ، ونعت النكرةِ نكرةٌ، والنعت يتبع المنعوت في رفعه ونصبه وخفضه، وأصل الصفة أن يقع للنكرةِ دون المعرفةِ؛ لأن المعرفةَ كان حقها أن تستغني بنفسها، وإنما عرض لها ضرب من التنكير فاحتيج إلى الصفة، فأما النكرات فهي المستحقة للصفات لتقرب من المعارف، وتقع بها حينئذٍ الفائدة، والصفة: كل ما فرق بين موصوفين مشتركين في اللفظ"[٢]. فابن السراج يعبر مرة بالنعت ومرة بالصفة، فهما عنده بمعنىً.

وعن الغرض من القيد بالنعت: يقول الورّاق: "الغَرَض من النَّعْت تَخْصِيص المنعوت"[٣]. ويقول الجزولي: "النعت: يُجاء به للفرق بين المشتركين في الاسم، وربما جيء به توكيدًا، وربما لمجرد المدح أو الذم في الاسم"[٤]، فالنعت يُساق قيدًا في الكلام لغرض بلاغي.

---

[١] شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، بدر الدين ابن مالك، تح/ محمد باسل عيون السود، (ص٣٥٠) دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى،٢٠٠٠م.

[٢] الأصول في النحو، ابن السراج، تح/ عبد الحسين الفتلي، (٢/ ٢٣)، مؤسسة الرسالة – بيروت، بدون تاريخ.

[٣] علل النحو، الزجاجي، تح/ د. مازن المبارك، (ص٣٨٠) دار النفائس – بيروت، ط الخامسة، ١٩٨٦م.

[٤] المقدمة الجزولية في النحو، الجزولي، تح/ د. شعبان عبد الوهاب محمد، راجعه/ د. حامد أحمد نيل – د. فتحي محمد أحمد جمعة، (ص٥٦)، مطبعة أم القرى، بدون تاريخ.

المبحث الأول:

(القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية)

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: (القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية وأثرها في خلق الكون).

وفيه ستة مواضع:

الموضع الأول: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (واحد)

يقول تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [الرعد: ٤-٥].

- **المعنى:**

يقول تعالى: وفي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ، بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة وبعضها صُلبة، وفيها جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزروع، صِنْوانٌ، أي: نخلات أصلها واحد. وَغَيْرُ صِنْوانٍ، أي: متفرقات مختلفات الأصول، تُسْقَى بِماء واحد وَنُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ. وذلك مما يدل على الصانع الحكيم؛ فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يستعملون عقولهم بالتفكر[1].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (واحد).**

ورد القيد: (واحد) في سياق سَوق القرآن الكريم لآيات الله الباهرات، التي تدل على طلاقة قدرته، وبسط سلطان هيمنته.

---

[1] ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، (٣/ ١٨١)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الأولى،١٤١٨ هـ.

ووراء قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (واحد) من البلاغة ما لا يخفى؛ فالحق – سبحانه وتعالى – يَعرض جانبًا من جوانب عظمته وطلاقة قدرته، من خلال ذلك القيد، فكون الماء واحد والطعوم مختلفة، دليل على طلاقة القدرة، يقول الواحدي: "فموضع الآية ومحل الأُعجوبة، أن القطع المتجاورة تُنبت نباتًا مختلفًا، منه الحلو والعذب والحامض البعيد من الحلاوة، وشربها واحد ومكانها مجتمع لا تفاوت بينها ولا تباين، وفي هذا أوضح آية على نفاذ قدرة الله"[١].

إنها قدرة طليقة، وهيمنة لا حدَّ لها، تلك التي قضت أن ماء واحدًا يأتي ثمره متنوع الطعوم، إنها دعوة للعقول المفكرة، والقلوب القاسية، والنفوس الطاغية، أن تتأمل في تلك الآية الربانية، وما وراءها من قدرة، فاختلاف الطعوم وَتَفَاضُلها مع كون الأصل واحد والغذاء بالماء واحد، ما هو إلا لقوى خفية أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة[٢].

هذا، وقد اقتضى المقام ذلك القيد؛ فالمقام مقام بيان أن القرآن حق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، واستدلال على التوحيد بأحوال السّموات وأحوال الشّمس والقمر، وبأحوال الأرض: جبالها وأنهارها، وبأحوال النّبات من زروع وثمار وأشجار مختلفة الطّعوم والرّوائح والألوان[٣]، يقول تعالى:﴿الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗا

---

[١] التفسير البسيط، الواحدي، تح/ أصل تحقيقه في: (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بتنسيقه، (١٢/ ٢٨٨)، نشر عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط الأولى، ١٤٣٠هـ.

[٢] ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الطاهر بن عاشور، (١٣/ ٨٨)، الدار التونسية للنشر – تونس،١٩٨٤هـ.

[٣] ينظر: التفسير المنير، الزحيلي، (١٣/ ١٠٣)، دار الفكر – دمشق، دار الفكر المعاصر – بيروت، ط الأولى، ١٩٩١م.

وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الرعد: ١-٣].

وما كان للمعنى القرآني أن يؤدَّى بدون ذلك القيد: (واحد) الذي أكد على المعنى المراد، والذي يدل عليه السياق، وهو طلاقة قدرة الله – تعالى – وبسط دلائل سلطان هيمنته.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

أما عن مقصد سورة: (الرعد)، فمقصودها: وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه، وتارة يتأثر عنه، مع أن له صوتًا وصيتًا، يهدي بالفعل، وتراه لا يتأثر، بل يكون سببًا للضلال والعمى، وأنسب ما فيها لهذا المقصد: الرعد، فإنه مع كونه حقًا في نفسه يسمعه الأعمى والبصير، وتارة يتأثر عنه البرق والمطر وتارة لا[1].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (واحد)، يظهر تناسب واضح بين تلك الجنات المتنوعة الثمر، التي تسقى بماء واحد على الرغم من اختلاف صنوفها من ناحية، والناس الذين يرون وضوح الأدلة على قدرة الله – فمنهم من يتأثر فيؤمن بل يَكمُل إيمانه، ومنهم من يتمادى في غيّه وضلاله من ناحية أخرى.

الموضع الثاني: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (لكم منه شراب)

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١٠-١١].

- **المعنى:**

يقولُ تعالى: الله أنعم عليكم إذ أنزل من السماء مطرًا، منه تشربون، ومنه شراب أشجاركم التي فيها ترعون. وينبت لكم ربكم بالماءِ الذي أنزل لكم من السماء، زرعكم

---

[1] ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، (٢/ ١٩٣)، مكتبة المعارف – الرياض، ط الأولى، ١٩٨٧م.

ومن كل الفواكه غير ذلك، أرزاقًا لكم وأقواتًا وإدامًا وفاكهةً، نعمة منه عليكم بذلك وتفضلًا، وحجة على من كفر به منكم، إن في ذلك لآية لقوم يَعْتَبرون[١].

• **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ).**

يقول صاحب إعراب القرآن وبيانه، في إعراب قوله تعالى: (لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ): "لكم خبر مقدم، ومنه متعلقان بمحذوف حال من شراب، وشراب مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لماء"[٢].

وقد ورد ذلك الوصف في سياق التذكير بالنعم، وفي قيد لفظ: (ماء) بجملة الوصف ما يطابق المقام؛ فالقيد بالنعت أتى ملائمًا للمقام، وقد أكد البلاغيون أن: "المنفعة مع موافقة الحال"[٣].

والمقام هنا مقام تعداد نعم الحق على عباده، ومن جملة تلك النعم ذلك الماء الموصوف بقوله تعالى: (لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ) وما عطف عليه: (وَمِنْهُ شَجَرٌ...) والمتأمل في جملة الوصف، تستوقفه تلك اللام في قوله تعالى: (لكم) تلك التي تحمل معنى المِلْك، فمن معاني اللام "المِلْك. نحو: المال لزيد، وقد جعله بعضهم أصل معانيها"[٤]، فالماء وهبه الله . تعالى . لكم فصار كالمِلْك بالنسبة لكم، فلم يجعل الله لأحد سلطانًا على ذلك الماء، فقد أنزله . تعالى . من السماء؛ عطاءً وتكرمًا على عباده.

كما أن في تنكير لفظ: (شراب) تعظيم لذلك الشراب، فهو شراب ذو قدر؛ فعليه تتوقف حياة الإنسان، فللتنكير أثره البارز في المعنى، يقول الإمامُ العلويُّ : "التنكيرُ قد يجيء

---

[١] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تح/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، (١٤/ ١٨١)، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، ط دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط الأولى، ٢٠٠١ م.

[٢] إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، (٥/ ٢٧٧)، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص، ط الرابعة، ١٤١٥هـ.

[٣] كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (ص١٣٥)، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.

[٤] الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، تح: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، (ص٩٦)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ .

لفائدة جَزْلَةٍ يقصُر عن إفادتها العلَم، ولا يبلغ كنهها رَسْمُ القلم"[١] والتنكير هنا أفاد الإفراد نوعًا، فمن مقامات التنكير: الإفراد نوعًا أو شخصًا[٢].

هذا، وقد اشتملت جملة القيد بالنعت على حرف الجر: (مِن) في قوله تعالى: (منه) وقد أفاد ذلك الحرف التبعيض، يقول الزجاجي في معنى: (مِن): "وتكون للتبعيض، كقولك: (أخذتُ درهمًا من المال)"[٣]. فاستعمالات الماء متعددة، ومن تلك الاستعمالات الشراب، وقد أتت: (مِن) بتلك الدلالة.

فجملة القيد وصفت الماء بإبراز جانب من استعمالاته، وجاء بناؤها التركيبي في جملة اسمية، تفيد الثبوت والدوام، فما أكدته الجملة الاسمية أمر ثابت دائم لا ينقطع، يشبه ذلك الماء الذي لا ينقطع تحدُّره من السماء.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

أما عن مقصد سورة النحل: فـ"مقصودها: الإقبال على الله وحده، وخلع كل ما سواه؛ لأنه وحده المالك لتفاصيل الأمور، وتفضيل بعض الخلق على بعض، وذلك هو العمل بالتقوى"[٤].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (لَّكُم مِّنْهُ شَرَاب) يمكن القول بأن: الله – تعالى – الذي تفضّل على عباده بالنعم الكثيرة التي منها أنه – سبحانه – أنزل من السماء ماء منه شرابهم، الذي هو سبب بقاء حياتهم، ومنه يسقون شجرهم الذي يرعون فيه أنعامهم التي يشربون من ألبانهم ويأكلون لحومها وشحومها؛ ولما كان سبحانه صاحب تلك النعم الكثيرة كان على العباد أن يُقبلوا عليه وحده بالعبادة والطاعة مخلصين متجردين من كل رياءٍ وقصدٍ لما سواه – تعالى – إذ كيف يقصدون سواه – سبحانه – وهو المتفضل عليهم بآلائه السابغة.

---

[١] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، (١٣/٢)، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

[٢] ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، تعليق/ نعيم زرزور، (ص١٩١)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الثانية، ١٩٨٧م.

[٣] حروف المعاني والصفات، للزجاجي، تح/ علي توفيق الحمد، (ص٥٠)، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

[٤] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ٢٣٠).

الموضع الثالث: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (طهورًا)

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩] .

- **المعنى:**

بعث الله – سبحانه وتعالى –الرياح مبشرة بالمطر؛ رحمة منه – سبحانه – بعباده، كما أنه – سبحانه وتعالى – أنزل من السماء ماء المطر الطاهر المطهّر، وبقدرة الله يحيي بذلك الماء الأرض الميتة، ويسقى بذلك الماء أنعامًا وبشرًا[1].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (طَهُورًا).**

أتي القيد في سياق الحديث عن منة من منن الله . تعالى . على عباده، إنها تلك الرياح التي أرسلها – سبحانه وتعالى – مبشرة بالمطر، يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ ثم يعطف على تلك المنة غيرها فيقول:﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي: أنزلنا بقدرتنا من السماء ماءً طهورًا، فأتى الماء مقيدًا بكونه طهورًا، "وَالطَّهُورُ بِفَتْحِ الطَّاءِ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ كَمَا يُقَالُ: رَجُلٌ صَبُورٌ... وَالمَعْنَى: أَنَّ الْمَاءَ النَّازِلَ مِنَ السَّمَاءِ هُوَ بَالِغُ نِهَايَةِ الطَّهَارَةِ فِي جِنْسِهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَوَصْفُ الْمَاءِ بِالطَّهُورِ يَقْتَضِي أَنَّهُ مُطَهِّرٌ لِغَيْرِهِ؛ إِذِ الْعُدُولُ عَنْ صِيغَةِ فَاعِلٍ إِلَى صِيغَةِ فَعُولٍ لِزِيَادَةِ مَعْنًى فِي الْوَصْفِ، فَاقْتِضَاؤُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ مُطَهِّرٌ لِغَيْرِهِ اقْتِضَاءٌ الْتِزَامِيٌّ؛ لِيَكُونَ مُسْتَكْمِلًا وَصْفَ الطَّهَارَةِ الْقَاصِرَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، فَيَكُونَ ذِكْرُ هَذَا الْوَصْفِ إِدْمَاجًا لِمِنَّةٍ فِي أَثْنَاءِ المنن الْمَقْصُودَة، ... فَيَكُونُ هَذَا الْوَصْفُ إِدْمَاجًا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ الْأَحَقُّ بِمَقَامِ الِامْتِنَانِ وَصْفُ الْمَاءِ بِالصَّفَاءِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ"[2].

فوصف لفظ: (ماء) بالنعت: (طهور) فيه إدماج لنعمتين: الأولى: أن الماء طاهر في ذاته، والثانية: أن الماء مطهّرٌ لغيره، وفي إدماج هاتين النعمتين ما يلائم المقام، ففي اعتبار البيان القرآني لتلك الخَصوصية بالقيد ملاءمة لمقام الامتنان وسوق النعم التي

---

[1] ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، تح: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ/ علي محمد معوض، الدكتور/ أحمد محمد صيرة، الدكتور/ أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور/ عبد الرحمن عويس، (٣/ ٣٤٢)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٩٩٤م.

[2] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (١٩/ ٤٧).

ابتدأها البيان القرآني بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥] ثم تعاقبت الآيات القرآنية التي يسوق البيان القرآني من خلالها أطرافًا من نعم الله – تعالى – على عباده.

هذا، وأرى: أن نعت لفظ: (ماء) بالنعت: (طَهُورًا) فيه إشارة إلى أن شكر منن الله – تعالى – يكون بالطاعة التي يتقرب بها العبد لربه، ومن تلك الطاعة الصلاة، التي يستعمل الماء الطهور في الطهارة استعدادًا لها. ففي القيد حثٌّ على شكر نعم الله – تعالى – بالصلاة، تلك التي تحتاج إلى الطهارة، والطهارة وسيلتها الماء الطهور، الذي هو طاهر في نفسه مطهِّر لغيره، جاء في تفسير القرطبي: "الماء المُنَزَّل من السماء طاهر في نفسه مُطَهِّرٌ لغيره، فإن الطَّهور بناء مبالغة في طاهر، وهذه المبالغة اقتضت أن يَكُونَ طاهرًا مطهِّرًا"[١].

فاعتبار القرآن الكريم لخَصوصية قيد لفظ: (ماء) بالقيد طهورًا، أتى مطابقًا للمقام الداعي لاعتبار تلك الخَصوصية، وما كان للمعنى أن يُؤدَّي إلا بتلك الخَصوصية.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي عن مقصد سورة: (الفرقان): "ومقصودها: إظهار شرف الداعي – صلى الله عليه وسلم –، بإنذار المكلفين عامة بما له سبحانه من القدرة الشاملة، المستلزم للعلم التام، المدلول عليه بهذا القرآن المبين، المستلزم لأنه لا موجود على الحقيقة سوى من أنزله فهو الحق، وما سواه باطل"[٢].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (طهورًا) نرى أن من دلائل قدرة الله – تعالى – الشاملة أن أنزل من السماء ماء طهورًا، فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره، فتلك آية من الآيات التي تدل على القدرة الشاملة للحق – سبحانه وتعالى –، ولا شك أن في تلك الآية الربانية إنذارًا للمكلفين، فهي من دلائل طلاقة قدرة الحق سبحانه، ومن كانت قدرته على ذلك الوصف كان قادرًا على تعذيب العاصين.

---

[١] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تح/ أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، (١٣/ ٣٩)، ط دار الكتب المصرية – القاهرة، ط الثانية، ١٩٦٤م.

[٢] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ٣١٧).

الموضع الرابع: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مباركًا)

يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩-١١].

- **المعنى:**

ونزلنا من السماء مطرًا مباركًا، فأنبتنا به بساتين وحبَّ الزرع المحصود من البُرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب، وأنبتنا بذلك الماء النخل طوالًا لها ثمر متراكب بعضه فوق بعض، كل ذلك قوتًا للعباد، وأحيينا بذلك الماء بلدة قد أجدبت وقحطت، وكما أنبتنا بهذا الماء هذه البلدة التي ماتت أرضها، نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم[1].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مباركًا).**

بمراجعة سياق القيد، نرى الآيات تتناول دلائل قدرة الله – تعالى –:﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ [ق: ٦-٨] ثم تنتقل الآيات إلى دليل من دلائل قدرة الله – تعالى – :﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩-١١].

فقيد لفظ: (ماء) بالقيد: (مباركًا) ملائم لسياق الآيات؛ فالبركة التي اشتق منها القيد: (مباركًا) يقول ابن منظور في معناها: "البَرَكة: النَّماء وَالزِّيادَةُ. والتَّبْريك: الدُّعاءُ للإِنسان أَوْ غَيْرِهِ بِالبَرَكَةِ. يُقَالُ: بَرَّكْتُ عَلَيْهِ تَبْريكًا، أَيْ: قُلْتَ لَهُ: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَبَارَكَ اللَّهُ الشيءَ وَبَارَكَ فِيهِ وَعَلَيْهِ: وَضَعَ فِيهِ البَرَكَة، وَطَعَامٌ بَرِيك: كَأَنَّهُ مُبارك...الْمُبارَكُ مَا يَأْتِي مِنْ قِبَله الخَيْرُ الكَثِيرُ "[2].

---

[1] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢١/ ٤١١).

[2] لسان العرب، (١٠/ ٣٩٥).

فالماء ليس على عمومه، إنما هو ماء مخصوص بأنه مبارك، كله نفع وخير؛ فبنزوله من السماء يتحقق النماء وتحصل الزيادة، فـ "ازدياد التقييد يوجب زيادة التخصيص، وهي موجبة لازدياد الغرابة المستلزِمة لزيادة الفائدة"[١].

"وَالمُبَارَكُ: اسْمُ مَفْعُولٍ لِلَّذِي جُعِلَتْ فِيهِ البَرَكَةُ، أَيْ: جُعِلَ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ "[٢] وهذا من مظاهر قدرة الله – تعالى – فوصف الماء بالبركة أدى مع أصل المراد خَصوصية دلالية خاصة لاءمت المقام والسياق.

وفي قيد الماء بالنعت: (مبارك) تأكيد على مزيد فضل الله – تعالى – على عباده، فهو سبحانه لم ينزل لهم من السماء ماء فحسب، إنما جعل هذا الماء مباركًا، ففي الوصف ترغيب للعباد في طاعة الله – تعالى – والاستقامة على صراطه المستقيم، وترهيب للعصاة ومنكري البعث منهم بنزع البركة من ذلك الماء، والبركة سر من أسرار الله – تعالى – من نُزِعت منه فقدَ خيرًا كثيرًا.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

وعن مقصد سورة: (ق): يقول البقاعي "مقصودها: الدلالة على إحاطة القدرة"[٣].

وعند محاولة إدراك الصلة بين وصف الماء بالبركة: (مباركًا)، وما في مقصد السورة من الدلالة على إحاطة القدرة، يمكن القول: بأن من أعظم دلائل إحاطة قدرة الله – تعالى – أنه – سبحانه وتعالى – نزَّل من السماء ماءً مباركًا، وجعله سببًا في رزق العباد، بإحياء الأرض بعد موتها، ومن قَدَرَ على ذلك كان قادرًا على بعث الناس يوم الحشر.

---

[١] معجم البلاغة العربية، (ص٥٦٣).

[٢] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢٦/ ٢٩١).

[٣] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ١٤).

الموضع الخامس: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (فراتًا)

يقول تعالى:﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٨].

- **المعنى:**

يقول تعالى: ألم نجعل الأَرْض لكم وِعاءً، تَكْفِتُ أحياءَكم في المساكنِ والمنازلِ، فتضُمُّهم فيها وتجمعُهم، وأمواتَكم في بطنِها في القبورِ، فيُدْفَنون فيها، وجعلنا في الأرضِ جبالًا ثابتاتٍ شاهقاتٍ، وأسقيناكم ماءً عَذْبًا[١].

- بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (فراتًا).

بتتبع سياق القيد، ندرك أن البيان القرآني استهل سورة المرسلات بالقسم عن طريق نعوت متعاقبة لمنعوت محذوف، على أن يوم البعث والحساب حق، ثم بين- سبحانه- علامات هذا اليوم، كما شرع في بيان دلائل وقوع ذلك اليوم، فساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانًا من الأدلة، كإهلاك المكذبين السابقين، وخلق الأولين والآخرين، والإنعام على الناس بالأرض والجبال والأنهار[٢].

وعن معنى الفرات في أصل الوضع اللغوي، يقول ابن منظور: "الفُراتُ: أَشَدُّ الماءِ عُذوبةً. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[الفرقان: ٥٣] "[٣].

فالماء الفرات ماء عذب وزيادة، وفي الإنعام بذلك الماء تتجلى قدرة الله – تعالى – الذي خلق هذا الماء سائغًا لعباده، يقول القرطبي: "(وَأَسْقَيْناكُمْ مَاءً فُراتًا) أَيْ: وَجَعَلْنَا لَكُمْ سَقْيًا. وَالْفُرَاتُ: الْمَاءُ الْعَذْبُ يُشْرَبُ وَيُسْقَى مِنْهُ الزَّرْعُ، أَيْ: خَلَقْنا الْجِبالَ وَأَنْزَلْنا الْماءَ الْفُراتَ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ أَعْجَبُ مِنَ الْبَعْثِ"[٤].

هذا، وقد قَرن البيان القرآني بين الرواسي الشامخات والماء الفرات، وفي بيان سر ذلك يقول صاحب التحرير والتنوير: "وَعُطِفَ وَأَسْقَيْناكُمْ مَاءً فُراتًا؛ لِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ الْجِبَالِ؛

---

[١] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٣/ ٥٩٦).

[٢] ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٥/ ٢٣٣).

[٣] لسان العرب، (٢/ ٦٥).

[٤] الجامع لأحكام القرآن، (١٩/ ١٦٢).

لِأَنَّهَا تَنْحَدِرُ مِنْهَا الْمِيَاهُ تَجْرِي فِي أسافلها وَهِي الْأَدْوِيَة وَتُقِرُّ فِي قَرَارَاتٍ وَحِيَاضٍ وَبُحَيْرَاتٍ"[١].

وتتجلى بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (فراتا) في ملاءمتها للمقام الداعي لاعتبار خصوصية القيد بالنعت: (فراتًا)؛ لما فيه من الدليل على طلاقة القدرة الربانية، فأي قدرة تلك التي تملك الإنعام بالماء الفرات.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي في مقصد سورة: (المرسلات): "ومقصودها: الدلالة على آخر الإنسان، من إثابة الشاكرين بالنعيم، وإصابة الكافرين بعذاب الجحيم، في يوم الفصل، بعد جمع الأجساد، وبعث العباد، بعد طيّ هذا الوجود، وتغيير العالم المشهود، المحسوس المعهود، بما له سبحانه من القدرة"[٢].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (فراتًا): يمكن القول: بأن من قَدَر على خلق الماء الشديد العذوبة والصفاء بطلاقة قدرته، قادر على إثابة الشاكرين، وتعذيب الكافرين بعذاب الجحيم، في يوم القيامة، بعد جمع الأجساد، وبعث العباد، لذا يقول الواحدي عن الماء المنعوت بـ(فراتًا): "وهذا ... أعجب من البعث"[٣]، وفي ذلك من الإقناع والتأثير ما لا يخفى.

الموضع السادس: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (ثجاجًا)

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ: ٦-١٦].

---

[١] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢٩/ ٤٣٤).

[٢] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ١٤٧).

[٣] التفسير الوسيط، (٤/ ٤٠٩).

• **المعنى:**

روي أنه – صلى الله عليه وسلم – لما بُعِث، جعل المشركون يتساءلون بينهم فيقولون: ما الذي أتى به؟ ويتجادلون فيه، وهو البعث بعد الموت، فنزلت. ثم قررهم – تعالى – على النظر في آياته الباهرة وغرائب مخلوقاته التي ابتدعها من العدم الصرف، وأن النظر في ذلك يُفضي إلى الإيمان بما جاءت به الرسل من البعث والجزاء، فكان من تلك الآيات الباهرة: أن الله – تعالى – أنزل من السحب ماءً منصبًا يتبع بعضه بعضًا[١].

• **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (ثجاجًا).**

بمطالعة سياق القيد: (ثجاجًا)، نري أن البيان القرآني استهل سورة النبأ بسؤال يحمل معنى التفخيم والتهويل، عن أمر البعث الذي اختلف فيه المشركون، ثم أخذت الآيات تسوق الدلائل الدالة على طلاقة قدرة الله – تعالى – التي منها: ذلك الماء يُصب بكثرة وتتابع، فيكون سببًا في إخراج الزروع والثمار.

وبالرجوع إلى دلالة مادة: (ثَجَجَ) يطالعنا قول صاحب لسان العرب: "الثَّجُّ: الصَّبُّ الكثيرُ، وَخَصَّ بَعْضُهُمْ بِهِ صَبَّ الماءِ الكَثِيرِ"[٢]. وعن المعنى المحوري لمادة: (ثَجَجَ): يقول د/ جبل: "المعنى المحوري هو: غزارة المائع الناشئ أو الخارج حتى يتجمع منه قدْر كثيف"[٣].

أما عند المفسرين، فيقول الطبري: "وأما قولُه: (مَاءً ثَجَّاجًا)، يقولُ: مَاءً مُنْصَبًا يَتْبَعُ بعضُه بعضًا، كثَجِّ دماءِ البُدْنِ، وذلك سفكُها"[٤]. ويقول الواحدي: "وثَجَّ الماء ثجًا، ومطرٌ ثجوج: إذا انصب، وماء ثجاجٌ: شديد الانصباب"[٥].

---

[١] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٤/ ٦). والبحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تح/ صدقي محمد جميل، (١٠/ ٣٨٤)، الناشر دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠هـ.

[٢] لسان العرب، (٢/ ٢٢١).

[٣] المعجم الاشتقاقي المؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم، د/ محمد حسن جبل، (١/ ٢٣٣)، مكتبة الآداب – القاهرة، ط الأولى، ٢٠١٠م.

[٤] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٤/ ١٤).

[٥] التفسير البسيط، الواحدي، تح/ أصل تحقيقه في: (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (٢٣/ ١٢٤)، ط الأولى، ١٤٣٠هـ.

وقد هُدِي صاحب التحرير والتنوير إلى ملمح لطيف، فذكر: أن في إنزال الماء الثجاج لإخراج الحب والنبات والجنات، استدلالًا بحالةٍ من الأحوال التي أودعها الله – تعالى – في نظام الموجودات تشبه الحياة بعد الموت، وتلك حالة إنزال ماء المطر من الأَسْحِبةِ على الأرض فتنبت الأرض، فيكون ذلك دليلًا للناس على تصور حالة البعث بعد الموت بدليل من التقريب(١).

هذا، وفي اعتبار البيان القرآني خَصوصية القيد بـ(ثجاجًا) في موضع: (مثجوج)، آية البلاغة، فوراء المخالفة بين الصيغ في القرآن الكريم تكمن أسرار بلاغية، يقول ابن الأثير: "واعلم أيها المتوشِّح لمعرفة علم البيان: أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى، لا يكون إلا لنوع خَصوصية اقتضت ذلك، ولا تجد ذلك في كل كلام؛ فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقِّها فهمًا، وأغمضها طريقًا"(٢). وللمخالفة بين الصيغ أثرها على المتلقي، فلا شك "أن هذه المخالفة في السياق القرآني تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المتوقع لديه، من اطِّراد السياق على نمط واحد من المطابقة، مما يجعل ذلك المتلقي يبحث عن مثيراتها السياقية وأبعادها الدلالية"(٣).

هذا، وقد آثر بيان القرآن الكريم صيغة: (ثجاجًا)، وقد نقل ابن منظور خلاف اللغويين حولها، إذ يقول: "وَمَاءٌ ثَجُوجٌ وثَجّاجٌ: مَصْبوبٌ. وَفِي التَّنْزِيلِ: (وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ مَاءً ثَجَّاجًا)...قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: هَذَا مِمَّا جَاءَ فِي لَفْظِ فَاعِلٍ، وَالْمَوْضِعُ مَفْعُولٌ؛ لأَن السَّحابَ يَثُجُّ الماءَ، فَهُوَ مَثْجُوجٌ. وَقَالَ بَعْضُ أَهل اللُّغَةِ: ثَجَجْتُ الماءَ أَثُجُّه ثَجًّا: إِذا أَساله، وثَجَّ الماءُ نفْسُه يَثُجُّ ثُجُوجًا: إِذا انْصَبَّ، فإِذا كَانَ كَذَلِكَ فأَنْ يَكُونَ ثَجَّاجٌ فِي مَعْنَى ثاجٍّ أَحسنُ مِنْ أَن يُتكلف وَضْعُ الْفَاعِلِ موضعَ الْمَفْعُولِ، وإِن كَانَ ذَلِكَ كَثِيرًا ... ودَمٌ ثَجّاجٌ: مُنْصَبٌّ مُصَوَّبٌ"(٤).

---

(١) ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٣٠/ ٢٥).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد،(٢/ ١٢)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت،١٤٢٠هـ.

(٣) الأسرار البلاغية للمخالفة بين الصيغ في الذكر الحكيم، د/ سلامة سيد سعد، (ص٩٧٨)، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد: الثلاثون، الجزء: الثاني، أكتوبر ٢٠١١م.

(٤) لسان العرب، (٢/ ٢٢١).

والذي أراه: أن بيان القرآن الكريم آثر صيغة اسم الفاعل: (ثجاجًا) وأتى بها في موضع اسم المفعول: (مثجوج)؛ وذلك لاقتضاء المقام، فلما كان المقام مقام تقرير بدلائل طلاقة قدرة الله – تعالى – في أعقاب الحديث عن اختلاف المخاطبين في أمر البعث بعد الموت، كانت البلاغة في إيثار صيغة اسم الفاعل:(ثجاجًا)؛ وذلك لدلالتها على اندفاع المطر بقوة ذاتية، فالمطر أصبح مندفعًا بطاقة ذاتية أودعها الله – تعالى – فيه، وليس اندفاعه بفعل المعصرات، وفي ذلك ما يلائم والمقام، وفي كون المطر يندفع بقوة ذاتية، دلالة على تجمع قدر كبير منه في الأرض، مما يؤكد كثرة ما ينتج عنه من الحَبّ والنبات، فلاسم الفاعل دلالة خاصة لا يؤديها غيره.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

جاء في مقصد سورة: (النبأ): أن مقصودها: الدلالة على أن يوم القيامة الذي كانوا بعد بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – في خلاف فيه مع المؤمنين، ثابت ثباتًا لا يحتمل شكًا؛ لأن خالق الخَلق خلق لهم ما يدل على قدرته المطلقة وسلطانه المهيمن[1].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد، وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (ثجاجًا) يمكن القول: بأن الذي قَدَر على إنزال الماء المندفع بقوة وتتابع؛ ليخرج به نبات الحَبّ – الذي جفَّ فأشبه الموتى – قادر على بعث الموتى بعد أن صاروا ترابًا[2].

---

[1] ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ١٥١).

[2] ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٣٠/ ٢٥).

المطلب الثاني:

(القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية وأثرها في خلق الإنسان).

وفيه ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين) في سورة السجدة.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧-٩].

- **المعنى:**

الله سبحانه وتعالى هو الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، وبدأ خلق آدم من طين، ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ثم جعله سويًا مستقيمًا، ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، وأنتم قليلًا ما تشكرون بتلك الوسائل التي رزقتموها[١].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين).**

بمراجعة السياق، يطالعنا قول أبي حيان في سبب نزول سورة السجدة: "قالَ كُفّارُ قُرَيْشٍ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ مُحَمَّدًا إِلَيْنَا، وَإِنَّمَا الَّذِي جَاءَ بِهِ اخْتِلَاقٌ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ"[٢]. والسورة تبدأ بالحديث عن أن الكتاب لا شك فيه، فهو من عند الله –تعالى – أنزله على نبيه محمد؛ ليُخوف به قومًا ما جاءهم من رسول من قبله؛ لعلهم يهتدون، والله الذي أنزل القرآن قادر، فهو الذي خلق السماوات والأرض وخلق ما بينهما في ستة أيام. ثم تمضي الآيات إلى الحديث عن قدرة الله – تعالى – في خلق الإنسان وإبقاء ذريته من ماء مهين.

---

[١] ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تح/ سامي محمد السلامة، (٦/٣٦٠)، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض، ط الثانية، ١٩٩٩م.

[٢] البحر المحيط في التفسير، (٨/ ٤٢٨).

وبإدراك ذلك السياق يسفر قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين) عن البلاغة التي تكمن وراءه، فقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين) يعطي معنى طلاقة القدرة الإلهية، فالله – تعالى – خلق الإنسان ابتداء من طين، وأبقى ذريته من سبب ضعيف، إنه ماء مهين أي: " نُطْفَةٍ ضعيفةٍ رقيقةٍ"[١]، ومن هذا السبب الضعيف بقيت الذرية، وستبقى إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

وفي اعتبار البيان القرآني لخَصوصية القيد بالنعت: (مهين) تتجلى بلاغة القرآن الكريم، ويتحقق جانب من جوانب الإعجاز القرآني، وما كان لتلك البلاغة أن تتحقق لولا اعتبار تلك الخَصوصية، يقول ابن عاشور: "والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يُعْبَأُ به. والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين؛ إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مِهْراقٍ لا يُعْبَأُ به ولا يصان"[٢].

هذا، وقد تعانقت في الآية الكريمة خَصوصيات بلاغية أخرى مع ذلك القيد، من ذلك: الأداة العاطفة: (ثم) تلك التي تصدرت الآية الكريمة، فـ(ثم) تفيد الترتيب والتراخي، وعنها يقول المرادي: "حرف عطف، يُشرك في الحكم، ويُفيد الترتيب بمُهلة"[٣]. والتراخي هنا ليس تراخيًا زمانيًا فحسب، إنما هو التراخي الرتْبي كذلك، فهو من باب التصعيد فالله – تعالى – بدأ خلق الإنسان من طين، ثم أطلعنا على صورة من صور طلاقة قدرته، فقال:﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ فإبقاء الذرية من ذلك الماء المهين، دلالة على طلاقة القدرة الإلهية النافذ أمرها في الخلق، و(مِنْ) في قوله تعالى: (من سلالة) ابتدائية، وسميت النطفة التي يتقوم منها تكوين الجنين سلالة كما في الآية؛ لأنها تنفصل عن الرجل، فابتداء النسل من سلالة، و(مِنْ) في قوله: (مِنْ ماءٍ مَهِينٍ)، قيل بيانية، وقيل: للتَّبْعِيض، وقيل: للابتداء[٤]. والذي أراه: أنها بيانية؛ لأنها كشفت عن طبيعة تلك السلالة وأبانت لنا عن كنهها. وفي تنوين لفظ: (سلالة) في قوله تعالى: (من سلالةٍ) ما يعطي معنى التعظيم والتفخيم؛ فهي سلالة عظيمة لا يدرك

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (١٨/ ٦٠٠).

[٢] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢١/ ٢١٦).

[٣] الجنى الداني في حروف المعاني، (ص٤٢٦).

[٤] ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢١/ ٢١٦).

الإنسان أبعاد عظمتها ولا سر بقائها، فهذا الإنسان الذي نفخ الله – تعالى – فيه من روحه، سر من أسرار الله – تعالى – ومن عظمة الحق – سبحانه – أنه يُنْفِذ مراداته بما يشاء من أسباب، وقد قضت حكمته أن يُبقى نسل الإنسان من ذلك الماء المهين. ففي قيد لفظ:(ماء) بالقيد: (مهين) دليل متكرر في كل زمان ومكان وفي كل جيل، يشهد بعظمة الله وطلاقة قدرته. وبإدراك تلك المعاني يتأكد لدينا، أنه يؤتى بالقيد؛ لتكثير الفائدة؛ لأن ازدياد التقييد يوجب ازدياد الخُصوص، وهو يوجب ازدياد البعد الموجِب لقوة الفائدة[١].

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي عن مقصد سورة: (السجدة): "ومقصودها: إنذار الكفار بهذا الكتاب، السّارِّ للأبرار بدخول الجنة والنجاة من النار، اسمها: (السجدة) منطبق على ذلك بما دعت إليه آيتها من الأخبار، وترك الاستكبار"[٢].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين)، ندرك أن في القيد بالنعت المذكور إنذارًا للكفار، بل ولكل العصاة بعظمة الله – تعالى – بل بطلاقة قدرته؛ إذ أبقى – سبحانه وتعالى – سلالة بني آدم المكرمين من سبب مهين واهٍ ضعيف، فلما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ﴾ ذهبت الأخلاد مذاهب شتى؛ توقعًا لبيان تلك السلالة التي منها سيتحدَّر البشر، وتبقى الحياة، ويتحقق قَدَر الله – تعالى – إذ قال:﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: جزء من الآية: ٣٠] .

الموضع الثاني: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين) في سورة المرسلات.

يقول تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٤].

المعنى: ألم نخلقكم من نطفة ضعيفة، حيث جعلناها في الرحم، إلى وقت معلوم لخروجها من الرحم بإذن الله – تعالى – فملكنا فنعم المالكون، ويل يومئذ للمكذبين بأن الله خلقهم من ماء مهين[٣].

---

[١] ينظر: كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، (ص١٥١وما بعدها). وشروح التلخيص، (٣٢/٢). وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، (١/ ١٦٧).

[٢] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ٣٦١).

[٣] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٥٩٦/٢٣).

• **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين).**

بمراجعة السياق، ندرك أن الحق – سبحانه وتعالى – يُذَكِّر كفار مكة بما عاقب به السابقين من الأمم الماضية، بعد أن كذبوا الرسل وطغوا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المرسلات: ١٦-١٩]، ثم خاطب القرآن الكريم كفار مكة بقوله تعالى:﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾...وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٤] إذ بين لهم – سبحانه وتعالى – آية من آيات قدرته، إذ خلقهم سبحانه من ماء أتى مقيدًا بالنعت: (مهين) أي: ضعيف حقير.

هذا، وقد أتى القيد في مساقٍ سيق في أسلوب إنشائي، سبيله: الاستفهام التقريري، وهو تقرير أفضى إلى التوبيخ على إنكار البعث والإعادة، وإلى إثبات البعث بإمكانه بإعادة الخلق كما بدئ أول مرة وكفى بذلك مرجحًا لوقوع هذا الممكن؛ لأن القدرة تجري على وفق الإرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن على عدمه. والماء: هو ماء الرجل. والمهين: الضعيف فَعِيل من مهن، إذا ضعف، وهذا الوصف كنايةٌ رمزية عن عظيم قدرة الله – تعالى – إذ خلق من هذا الماء الضعيف إنسانًا شديد القوة عقلًا وجسمًا.[1]

• **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي عن مقصد سورة: (المرسلات): "ومقصودها: الدلالة على آخر الإنسان، من إثابة الشاكرين بالنعيم، وإصابة الكافرين بعذاب الجحيم، في يوم الفصل، بعد جمع الأجساد، وبعث العباد، بعد طي هذا الوجود، وتغيير العالم المشهود، المحسوس المعهود، بما له سبحانه من القدرة"[2].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مهين) ندرك أن تقرير الحق – سبحانه – للكافرين بأنه – سبحانه – خلقهم من ماء موصوف بأنه: (مهين)، فيه تأكيد على قدرته – سبحانه وتعالى – عليهم فهم تحت سلطان الإرادة الإلهية الربانية، وقهر المشيئة العلوية، فهو سبحانه قادر على عذابهم بالجحيم في

---

[1] ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢٩/ ٤٣٠).

[2] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ١٤٧).

الآخرة، وذلك بعد بعثهم وإعادة خلقهم مرة أخرى، فالذي خلقهم أول مرة من ماء مهين، أي: سبب ضعيف ممتهن، قادرٌ على إعادة بعثهم من قبورهم بعد فناء أجسادهم، ففي خلقهم أول مرة من ذلك الماء المقيد بأنه: (مهين) دليل مشاهَد على ذلك الأمر الغيبي وهو البعث بعد الفناء. وبهذا، ندرك العلاقة القوية بين القيد بالوصف، ومقصد سورة: (المرسلات).

الموضع الثالث: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (دافق)

يقول تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾ [الطارق: ٥-٨].

- المعنى:

يقول تعالى: فليتفكر الإنسان في كيفية بدء خلقه؛ ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث، إنه خُلِق من ماء مدفوق مصبوب في الرحم، وهو ماء الرجل وماء المرأة، وقد جُعلا ماءً واحدًا لامتزاجهما، وهو سبحانه على إعادة الإنسان بالبعث بعد الموت لقادر؛ لأن من قَدَر على البداءة قَدَر على الإعادة[١].

- بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (دافق).

بمراجعة السياق، نرى سورة الطارق تبدأ بالقسم بالسماء والنجم الذي يطرق ليلًا، على أنه ما من نفس إلا وكَّل الله بها مَلَكًا يُحصي عليها أعمالها؛ لتحاسب عليها يوم البعث، ثم تتناول السورة دعوة الإنسان للتفكر في خلقه من ماء دافق؛ لإقناعه بالبعث بعد الموت.

وسدنة اللغة فاختلفوا حول معنى: (دافق):

فمنهم من قال إنها على زنة: فاعل بمعنى مفعول: يقول الجوهري: "دَفَقْتُ الماء أَدْفِقُهُ دَفْقًا، أي: صببتُه، فهو ماءٌ دافِقٌ، أي: مَدْفُوقٌ، كما قالوا: سرٌّ كاتمٌ، أي: مكتومٌ...ويقال: دَفَقَ الله روحَه: إذا دُعيَ عليه بالموت"[٢].

---

[١] ينظر: التفسير المنير، (٣٠/ ١٧٧).

[٢] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أحمد عبد الغفور عطار، (١٤٧٥/٤)، دار العلم للملايين – بيروت، ط الرابعة، ١٩٨٧م.

"وَسِيبَوَيْهِ جَعَلَهُ مِنْ صِيَغِ النَّسَبِ كَقَوْلِهِمْ: لَابِنٌ وَتَامِرٌ، فَفُسِّرَ دَافِقٌ: بِذِي دَفْقٍ"(١).

وقال"الْأَصْمَعِيُّ:...هُوَ عَلَى أُسْلُوبٍ لِأَهْلِ الْحِجَازِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يُحَوِّلُونَ الْمَفْعُولَ فَاعِلًا إِذَا كَانَ فِي مَحَلِّ نَعْتٍ، وَالْمَعْنَى: مِنْ مَاءٍ مَدْفُوقٍ... وَقَالَ الزَّجَّاجُ الْمَعْنَى: مِنْ مَاءٍ ذِي دَفْقٍ، وَالدَّفْقَةُ بِالْفَتْحِ: الْمَرَّةُ، وَبِالضَّمِّ: اسْمُ الْمَدْفُوقِ"(٢).

أما عن معنى القيد: (دافق) عند المفسرين، فيقول صاحب التحرير والتنوير: "دافِق: خَارِجٌ بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ، وَالْأَشْهَرُ: أَنَّهُ يُقَالُ عَلَى نُطْفَةِ الرَّجُلِ. وَصِيغَةُ دافِقٍ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ دَفَقَ...وَالْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ فَاعِلٍ...وَأَطْنَبَ فِي وَصْفِ هَذَا الْمَاءِ الدَّافِقِ؛ لِإِدْمَاجِ التَّعْلِيمِ وَالْعِبْرَةِ بِدَقَائِقَ التَّكْوِينِ؛ لِيَسْتَيْقِظَ الْجَاهِلُ الْكَافِرُ، وَيَزْدَادَ الْمُؤْمِنُ عِلْمًا وَيَقِينًا"(٣).

والذي أراه: أن القيد: (دافق) اسم فاعل استعمل على حقيقته، فالبلاغة في اعتبار هذا المعنى؛ لأن المراد – والله أعلم بمراده – أن الله – تعالى – يدعو الإنسان إلى التفكر في ماهيته، من أي شيء خُلِق؟ ثم يأتي الجواب من قِبَل الله – تعالى –: (خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ) يتدفق، فله خاصيَّة الماء وهي التدفق، فهو سبب ضعيف بل مهين، كما وصفه القرآن الكريم في غير ذلك الموضع.

- مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:

جاء في مقصد سورة: (الطارق): "ومقصودها: بيان مجد القرآن في صدقه في الإخبار بتنعيم أهل الإيمان، وتعذيب أهل الكفران في يوم القيامة، حين تبلى السرائر، وتكشف الضمائر"(٤).

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد، وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (دافق) يمكن القول: بأن الله – تعالى – الذي خلق الإنسان من ماء دافق له خاصية الدفق التي هي للماء، قادر – بلا ريب – على إعادة خلقه تارة أخرى بالبعث يوم الحساب، فما من آية يؤذن سياقها بتوجيه إلى النظر في علم الأجنة وعلم الأحياء والتشريح، إلا وتساق في الاستدلال لقدرة الله الذي خلق الإنسان من عَلَق، أو من نطفة أو من تراب، على النشأة الأخرى التي هي مدار الثواب والعقاب(٥).

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢٦٢/٣٠).

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، (١٩٧/١)، المكتبة العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

(٣) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٣٠/ ٢٦٢).

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ١٧٨).

(٥) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، د/ عائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، (٢/ ١٩،٢٠)، دار المعارف – القاهرة، ط السابعة، بدون تاريخ.

المطلب الثالث:

(القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية والاحتجاج بها على الكافرين).

وفيه موضع واحد:

بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مَعين)

يقول تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ ٣٠﴾ [الملك: ٢٨-٣٠].

- **المعنى:**

يقول تعالى ذكرُه لنبيّه محمدٍ – صلى الله عليه وسلم –: قلْ يا محمدُ للمشركين مِن قومِك: إن أماتني الله ومن معي أو مدَّ في آجالنا، فمن ينجي الكافرين من عذاب مؤلِم، قلْ يا محمدُ: ربُّنا الرحمن صدَّقْنا به، وعليه اعْتَمَدْنا في أُمورِنا، وبه وَثِقْنا، فستعلمون أيُّها المشركون باللَّهِ من هو على غيرِ طريقٍ مستقيمٍ منا ومنكم. قلْ يا محمدُ: أخبروني: إن أصبح ماؤكم غائرًا لا تنالُه الدِّلاءُ، فمن يَجِيئُكم بماءٍ مَعِينٍ تَراه العيونُ ظاهرًا![1].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (معين).**

عند مراجعة سياق قيد لفظ: (ماء) بالقيد: (مَعِين) نجد أن هذا السياق سيقت فيه أسئلة تقريرية متعاقبة، تحمل المخاطبين على الإقرار بالحق والتسليم بطلاقة قدرة الله – تعالى – وتمام هيمنته على الكون، وأن الملك بيده، وهو على كل شيء قدير، يقول تعالى:﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: ٣] ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾ [الملك: ٨] ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك:

---

[1] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٣/ ١٣٨وما بعدها).

١٦-١٧] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ١٩-٢٢] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٨﴾﴾ [الملك: ٢٨] فأدوات الاستفهام تلك خرجت عن حقيقتها، التي هي طلب الفهم إلى أغراض أخرى، وأدوات الاستفهام كثيرًا ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن، وتحقيق كيفية هذا المجاز[١].

وبعد هذه الاستفهامات التقريرية المتعاقبة، يأتي الاستفهام الأخير الذي ختمت به السورة:﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠] و(معين) "أي: ظاهر، تراه وتناله الدلاء"[٢].

وتتجلى بلاغة ذلك القيد في أن ذلك النعت من دلائل قدرة الله – تعالى – ففي القيد دليل من تلك الأدلة العقلية التي تقنع المخاطبين في كل زمان ومكان؛ لأن القادر على الإتيان بالماء المعين الظاهر المشاهَد بالبصر الذي يجري أمام المشاهِد لهو دليل لا ينال منه الريب ولا يطاله الشك على طلاقة قدرة الله – تعالى –: يقول الرازي: "والمقصود: أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه؛ ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر، أي: أخبروني إن صار ماؤكم ذاهبًا في الأرض، فمن يأتيكم بماءٍ معينٍ، فلا بُدَّ وأن يقولوا: (هو الله)، فيقال لهم حينئذٍ: (فلِمَ تجعلون من لا يقدر على شيءٍ أصلًا شريكًا له؟)"[٣].

هذا، وقد أتي الاستفهام وما يتضمنه من قيد في نهاية السورة يؤكد ما أتى في مطلعها:﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١].

والحقيقة: أن الاستفهام في الآية التي تضمنت القيد يمكن أن نقف من خلاله على معانٍ عدة، فهو يعطينا معنى التقرير، وإن قدَّرنا محذوفًا، فكان التقدير: (فمَن غير الله

---

[١] ينظر: كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، (ص٢٣٥).

[٢] التفسير البسيط، (٢٢/ ٦٥).

[٣] مفاتيح الغيب، الرازي، (٣٠/ ٥٩٧)، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ.

يأتيكم بماءٍ معينٍ؟!) دل الاستفهام المجازي على معنى النفي: (لا أحد غير الله يأتيكم بماء معين) فالحقيقة: "أن ما تُشيعه أداة الاستفهام أرحب وأدق من أن نحدده تحديدًا تامًا... وهذا ليس بعيدًا عن طبيعة اللغة"[١].

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي في مقصد سورة: (الملك) "ومقصودها: الخضوع لله؛ لاتصافه بكمال الملك، الدال عليه تمام القدرة، الدال عليه قطعًا إحكام المكونات، الدال عليه تمام العلم، الدال عليه مع إحكام المصنوعات، علم ما في الصدور، لينتج ذلك العلم بتحتم البعث لدينونة العباد على ما هم عليه من الصلاح والفساد، كما هي عادة الملوك، لتكمل الحكمة، وتتم النعمة. واسمها: (الملك) واضح في ذلك؛ لأن الملك محل الخضوع، من كل ما يرى الملك. وكذا: (تبارك)؛ لأن من كان كذلك، كان له تمام الثبات والبقاء. فكان له من كل شيء كمال الخضوع والاتقاء"[٢].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مَعين) يمكن القول: بأن ذلك القيد يناسب المقصد العام للسورة؛ لأن في كون الماء مَعينًا أي: مُشاهَدًا للناس يُدركونه بأنفسهم، ما يدعو إلى ما أتى في مقصد السورة، من الخضوع لله – تعالى – فمن يأتي الناس بماء مشاهَد يرونه بأعينهم، متصفٌ بكمال الملك، فهو تام القدرة، تام العلم، فالكون واقع تحت سلطان هيمنته المطلقة، فدلائل قدرته لا يتمارى فيها اثنان.

وبهذا، يتأكد أن اعتبار البيان القرآني لخَصوصية القيد بالنعت: (مَعين) مع ما يؤدى به أصل المراد، صورة من صور الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

---

[١] دلالات التراكيب – دراسة بلاغية، د/ محمد محمد أبو موسى، (ص٢١٨)، مكتبة وهبه . القاهرة ، ط الثانية، ١٩٨٧م.

[٢] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ١٠٣).

المبحث الثاني: (القيد بالنعت في سياق الوعد)

وفيه ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (غير آسن – حميمًا)

في سورة: (محمد) ورد قيد لفظ: (ماء) في آية واحدة مرتين، مرة بالنعت: (آسن) ومرة بالنعت: (حميمًا) يقول تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٤-١٥].

- **المعنى:**

يذكر سبحانه ما بين المؤمن والكافر من بون شاسع، فيقول: أفمن كان على يقين من دينه، كمن يعبد الأوثان، واتبع هواه في عبادتها. ثم وصف الجنات بأن فيها أنهارًا من ماء غير متغير، وأنهارًا من لبن لم يحمض، وأنهارًا من خمر لذيذة لهم، وأنهارًا من عسل مصفىً، ولهم في الجنة من كل الثمرات ومغفرة من ربهم، كمن هو خالد في النار، وسُقوا ماء شديد الحر، تستعر عليه جهنم منذ خلقت، فقطع أمعاءهم في الجوف، من شدة الحر[1].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (غير آسن) مرة، و(حميمًا) مرة.**

المقطع المتضمن للقيد مبنيٌّ على المفارقة بين صورتين مختلفتين: الصورة الأولى: صورة من كان على يقين من دينه، وما له من جزاء، والصورة الثانية: صورة من يعبد الأوثان، واتبع هواه في عبادتها، وما له من جزاء.

وتتجلى بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالقيد: (غير آسن) في أن أصحاب الصنف الأول التزموا الفطرة السليمة والصراط المستقيم، فلم تذل بهم أقدامهم، بأن كانوا على يقين من دينهم وتثبت من سلامة معتقدهم، ومن ثم كان جزاؤهم وفاقًا لفعلهم، فلهم في الجنة أنهار من ماء لم يغيَّر بل ثابتٌ على حلاوته وطلاوته وباقٍ على لذته، مثلهم فهم

---

[1] ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (٤/ ١٢٢).

ثابتون على عقيدتهم، لم تؤثر فيهم فتنة فتخرجهم من ذلك السبيل، ولعل ما يؤكد ذلك الطرح، ما ورد بالآية من أنهار اللبن الذي لم يتغير طعمه، وأنهار الخمر التي لا تُغَيِّر في شاربها، بل تعطيه لذَّتها فحسب، وأنهار من عسل لم تتغير بما يكدر صفوها.

كما تتجلى بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالقيد: (حميمًا) في ملاءمة ذلك القيد لحال أصحاب الصنف الثاني:﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ... كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ إنهم قوم خرجوا عن جادَّة الصواب متبعين أهواءهم، فكان جزاؤهم الموافق لعملهم، أن يتحول الماء الذي يطفئ العطش ويَروي الغُلَّة عن طبيعته المعهودة وخَصوصية الطَّبَعِيَّة، إلى ماء مقيد بالنعت: (حميمًا) بالغ الغاية في حرارته ولظاه، يقول الطبري: "وسُقِيَ هؤلاء الذين هم خلود في النارِ ماءً قد انتهى حرُّه، فقطع ذلك الماء من شدة حرِّه أمعاءهم"[١].

إن تنوُّع القيدين لمقيَّد واحد، يعكس دقة البيان القرآني وإعجازه القاهر لكل بيان، فـ"القرآن يتأنق في اختيار الألفاظ، ويستخدم كلًا حيث يؤدى معناه في دقة فائقة، تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفًا، بل كل كلمة تحمل إليك معنىً جديدًا"[٢].

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

أما عن مقصد سورة: (محمد): فـ"مقصودها: التقدم إلى المؤمنين في حفظ حظيرة الدين، بإدامة الجهاد للكفار، حتى يُلزموهم الصَّغار، أو يبطلوا ضلالهم، كما أضل الله أعمالهم، لا سيما أهل الرِّدَّة الذين فسقوا عن محيط الدين إلى أودية الضلال المبين"[٣].

والعلاقة بين مقصود السور وقيد لفظ: (ماء) بالنعتين: (غير آسن – حميمًا) تكمن في كون الثابتين على المداومة في جهاد الكفار حتى يلزموهم الصغار، لهم عند ربهم نعيم مقيم لا تتغير صورته، فلهم أنهار من ماء غير متغير بسبب طول المُكث، كما قال الله تعالى: (لهم أنهار من ماء غير آسن) أما الذين فسقوا ولم يَثبتوا على يقينهم بربهم

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢١/ ٢٠٢).

[٢] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعني، (١/ ٢٤٥)، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٩٩٢م.

[٣] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ٤٨٦).

– سبحانه وتعالى – فلهم ماء تغيرت طبيعته من الرِّي وإذهاب الغُلَّة إلى أن صار حميمًا، قد بلغ الغاية في الحرارة.

وبهذا، ندرك أن المناسبة بين لفظ القيد والمقصد العام للسورة دقيقة المأخذ، تحتاج إلى تتبع دقيق لوشائج المعاني.

الموضع الثاني: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مسكوب)

يقول تعالى:﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ٤٠﴾ [الواقعة: ٢٧-٤٠].

- **المعنى:**

وأصحاب اليمين، المقول فيهم ما أصحاب اليمين على سبيل التفخيم، مستقرون يوم القيامة في حدائق فيها شجر النَّبق، منزوع الشوك، وشجر موز متراكب بعضه فوق بعض، وظِلٍّ متسع منبسط، وماء كثير مصبوب يجرى على الأرض، يأخذون منه ما شاءوا، بدون جهد أو تعب. وهم بجانب كل ذلك يتلذذون في الجنة بفاكهة كثيرة، ليست مقطوعة عنهم في وقت من الأوقات، وفيها- أيضًا- فُرُش منضدة، قد ارتفعت عن الأرض، ليتكئ عليها أهل الجنة وأزواجهم. إنا أنشأنا أزواجهم المطهرات من كل رجس حسيٍّ أو معنويٍّ إنشاءً جميلًا يشرح الصدور، فصيرناهن أبكارًا؛ ليكنَّ في صحبة أصحاب اليمين، على سبيل التكريم لهم[1].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مسكوب).**

بمطالعة السياق، نرى أن سورة الواقعة بدأت بالحديث عن قيام القيامة، وأنه لا شك فيها، والقيامة خافضة للكافرين والعصاة، رافعة للمتقين والطائعين، والناس يومها أصناف ثلاثة، ثم تبدأ الآيات في بيان تلك الأصناف التي منها: أصحاب اليمين، أولئك الذين ورد قيد لفظ: (ماء) بلفظ: (مسكوب) في سياق الحديث عنهم.

---

[1] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٤/ ١٦٦).

وبالرجوع إلى معاجم العربية وقوفًا على دلالة لفظ القيد: (مسكوب) يطالعنا قول ابن دريد: "والسكب من المَطَر: الهَطَلان الدَّائِم، وَفرسٌ سَكْبٌ: إِذا كانَ جوادًا سهل الجري، وانسكب الشيء انسكابًا كالدمع وغيره، وسكبت العين دمعها، وماء مسكوب: إِذا جعلته مَفْعُولًا"[١].

وبمراجعة كلام المفسرين نقف على جوانب مختلفة لدلالة القيد: (مسكوب): جاء في التفسير البسيط: مسكوب: مصبوب يجري الليل والنهار لا ينقطع عنهم، فهو ماء لا يتعبون فيه، ينسكب لهم كيف يحبون[٢]. فالواحدي يذكر معنى: الوفرة والديمومة وعدم التعب في طلب الماء، وهذه نعم أعدها الله – تعالى – لأصحاب اليمين.

وإلى هذا المعنى ذهب البيضاوي، يقول: "وماءٍ مَسْكُوبٍ يُسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا بلا تعب، أو مصبوب سائل كأنه لما شَبَّه حال السابقين في التنعم بأعلى ما يتصور لأهل المدن، شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي؛ إشعارًا بالتفاوت بين الحالين"[٣].

أما ابن عاشور، ففسر القيد: (مسكوب) على جري الماء بقوة في أنهار الجنة المعدَّة لأصحاب اليمين، يقول: "وَسَكْبُ الماءِ: صَبُّهُ، وَأُطْلِقَ هُنَا عَلَى جَرْيِهِ بِقُوَّةٍ يُشْبِهُ السَّكْبَ، وَهُوَ ماءُ أَنْهَارِ الجَنَّةِ"[٤].

فاسم المفعول ما دل على الحدث والحدوث وذات المفعول كمقتول ومأسور، وهو يدل على الحدوث والثبوت، فـ(أنا منصور) يدل على أن هذا الوصف ثابت لي، وصيغة اسم المفعول تدل على المضي والحال والاستقبال والاستمرار[٥]. وفي اسم المفعول: (مسكوب) ما يؤكد حدوث تلك الصورة من صور تنعيم أصحاب اليمين، إلى جانب

---

[١] جمهرة اللغة، ابن دريد، تح/ رمزي منير بعلبكي، (١/ ٣٣٩)، دار العلم للملايين – بيروت، ط الأولى، ١٩٨٧م.

[٢] ينظر: التفسير البسيط، (٢١/ ٢٣٢).

[٣] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٥/ ١٧٩).

[٤] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢٧/ ٣٠٠).

[٥] ينظر: معاني الأبنية في العربية، د/ فاضل صالح السامرائي، (ص٥٢)، ط الثانية، دار عمار – الأردن، ٢٠٠٦م.

ثبوتها فهي دائمة مقيمة لا تقع مرة أو مرات فحسب؛ لذا يقول الفراء: "وقوله: وَماءٍ مَسْكُوبٍ: جارٍ غير منقطع"[١].

ففي اصطفاء القرآن الكريم لخَصوصية قيد لفظ: (ماء) بالقيد: (مسكوب) ما ناسب المقام، فما كان للمعنى أن يؤدَّى بدون اعتبار البيان القرآني لتلك الخصوصية، التي ناسبت المقام، وعرضت لصورة من صور ذلك النعيم المقيم الذي أعده الله – تعالى – لأصحاب اليمين، فإنه لما كان المقطع الذي يتناول نعيم أصحاب اليمين، يدور معناه على ديمومة النعيم، وجمال المنظر الذي يأسر النفس بل ويملؤها بهجة وسرورًا، كان في قيد لفظ: (ماء) بقيد: (مسكوب) ما ناسب المقام. كما أن الماء الذي يُسكب جرت العادات أنه لا يدوم، إنما يُسكب وقتًا ثم ينقطع، ولكن الجنة ماؤها مسكوب على الدوام، فهي ذات نعيم لا عهد للإنسان به، ففيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

أما عن مقصد سورة: (الواقعة): فـ"مقصودها: شرح أحوال الأقسام الثلاثة المذكورة في الرحمن: الأولياء من السابقين، واللاحقين، والأعداء المشاققين: من المصارحين، والمنافقين من الثقلين؛ للدلالة على تمام القدرة بالفعل"[٢].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (مسكوب) يمكن القول: بأن القيد: (مسكوب) أتى يكمل مظاهر النعيم لصنف من تلك الأصناف الثلاثة، وهو صنف أصحاب اليمين، وما كان لهذا الصنف أن تكتمل صورته بغير ذلك القيد: (مسكوب) الذي أفاد ديمومة النعيم، وجمال المنظر الذي يأسر النفس بل ويملؤها بهجة وسرورًا.

---

[١] معاني القرآن، الفراء، تح/ أحمد يوسف النجاتي وآخرين، (٣/ ١٢٥)، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط الأولى، بدون تاريخ.

[٢] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ٥٢).

الموضع الثالث: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (غدقًا)

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٤-١٧].

- **المعنى:**

يقولُ تعالى ذكرُه مخبرًا عن قيل النفر من الجن: وأنا منَّا الذين قد خضعوا لله بالطاعة، ومنا الجائرون عن الإسلام وقصدِ السبيل، فمن أَسْلَم للهِ وخضع له بالطاعة، فأولئك تعمَّدوا وتَوخَّوا رَشَدًا في دينهم. وأما الجائِرُون عن الإسلام، فكانوا لجهنم حطبًا تُوقَدُ بهم. وأَنْ لو استقام هؤلاء القاسطون على طريقةِ الحقِّ والاستقامة لوسَّعْنا عليهم في الرزق، وبَسَطْنا لهم في الدنيا؛ لِنَخْتبرَهم فيه، ومن يُعْرِضْ عن استماع القرآن واستعماله، يَسْلُكْه اللهُ عذابًا شديدًا شاقًّا[١].

- بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (غدقًا).

وبمراجعة سياق قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (غدقًا)، نرى أن السورة قد افتتحها – سبحانه وتعالى – بأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن يقول للناس ما حدث من الجن بعد سماعهم للقرآن، وكيف أنهم انقسموا إلى فريقين: فريق قال: إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن، عظيم القدر، وهذا القرآن يهدي إلى الخير والصواب والهدى فآمنا به. وفريق آخر ضلَّ الطريق: يشمل إبليس ومن معه من الذين جاوزوا الحد في الكذب على الله – تعالى – والإنس الذين كانوا يستعينون بالجن؛ طلبًا لمنفعتهم وعونهم على قضاء مصالحهم. ثم يذكر سبحانه وتعالى مقالة الجن: وأنا منَّا المسلمون، ومنا من عدلوا عن الحق، ثم بين سبحانه عاقبة كل من الفريقين، فكان عاقبة من استقاموا على طريق الحق سَعة في الرزق، يقول ابن عاشور: "وَقَوْلُهُ: لَأَسْقَيْناهُمْ مَاءً غَدَقًا: وَعْدٌ بِجَزَاءٍ على الِاسْتِقَامَةِ فِي الدِّينِ؛ جَزَاءً حَسَنًا فِي الدُّنْيَا يَكُونُ عُنْوَانًا عَلَى رِضَى اللَّهِ – تَعَالَى – وَبِشَارَةً بِثَوَابِ الْآخِرَةِ"[٢].

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٣٣٣/٢٣ وما بعدها).

[٢] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢٩/ ٢٣٨).

هذا، وقد أتت الجملة المتضمنة للقيد ملائمة لمطلع السورة، يقول صاحب التفسير الوسيط: "وقوله- سبحانه-: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا﴾، معطوف على قوله- تعالى-: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾، فهو من جملة الموحَى به، وهو من كلام الله- تعالى-؛ لبيان سنة من سننه في خلقه"(١).

وإذا طالعنا دلالة لفظ القيد: (غدقا) في المعاجم، يطالعنا قول ابن فارس: "(غَدَقَ) الْغَيْنُ وَالدَّالُ وَالْقَافُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى غُزْرٍ وَكَثْرَةٍ وَنَعْمَةٍ، مِنْ ذَلِكَ الْغَدَقِ، وَهُوَ الْغَزِيرُ الْكَثِيرُ، قال الله – تعالى -: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] . وَالْغَدَقُ وَالْغَيْداقُ: النّاعِمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُقَالُ غَدِقَتْ عَيْنُ المَاءِ تَغْدَقُ غَدَقًا، وَالغَيْداقُ: الرَّجُلُ الْكَرِيمُ الْخُلُقِ. وَزَعَمَ نَاسٌ أَنَّ الضَّبَّ يُسَمَّى غَيْدَاقًا، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِسِمَنٍ وَنَعْمَةٍ فِيهِ"(٢).

وقد أتى القيد: (غدقًا) لبنة في بناء تركيبي لصورة كنائية، فقوله تعالى:﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] كناية عن فتح أبواب المعيشة، يقول الخليل: "قوله تعالى: لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا، أي: فتحنا عليهم أبواب المعيشة؛ لنختبرهم بالشكر"(٣). والقيد يحمل الدعوة إلى أن الاستقامة على طريق الله – تعالى – تلك التي ستؤدي إلى وفرة الرزق والبركات.

لقد أغنى القيد: (غدقًا) عن كثير من البسط والبيان، فالكناية لو نُثرت كنانتها وأُفرغت جَعْبتها، لتلاطم النص بكثير الكلام، ولكن الكناية عبَّرت عن مراد البيان القرآني في إيجاز متضمن للدليل المقنع، وهكذا الكناية، يقول الإمام عبدالقاهر: "أما الكنايةُ، فإنَّ السببَ في أنْ كانَ للإثباتِ بها مزيةٌ لا تكونُ للتَّصريح، أنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلمُ إذا رجعَ إلى نفسهِ، أَنَّ إثباتَ الصفةِ بإثباتِ دَليلِها، وإيجابَها بما هُو شاهِدٌ في وجودِها، آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذَجًا غُفْلًا، وذلك أنَّكَ لا تدَّعي شاهدَ الصفةِ

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٣٩/١٥).

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، تح/ عبد السلام هارون، (٤/ ٤١٥)، ط دار الفكر، ١٩٧٩م.

(٣) كتاب العين، الخليل بن أحمد، تح/ د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، (٣٥٣/٤)، دار ومكتبة الهلال، بدون تاريخ.

ودليلهَا إلاّ والأَمرُ ظاهرٌ معروفٌ، وبحيثُ لا يُشَكُّ فيه، ولَا يُظَنُّ بالمُخْبر التجوُّزُ والغَلَطُ"[١].

ومن المفسرين من توسَّع في دلالة تلك الكناية التي تضمنت لفظ القيد، فذكر: أن قوله تعالى:﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ وعدٌ منه – سبحانه – لأهل الإيمان الذين استقاموا على الطريقة الربانية ألا يفوِّت عليهم – سبحانه – ما يطلبون في الدنيا من خير، فإن الإيمان بالله، والعمل للآخرة، لا يعوق من سعى الإنسان ولا يعطل من جهده في تحصيل الرزق؛ فالرزق بيد الله، وهو – سبحانه – لا يعاقب المؤمنين بالتضييق عليهم في الرزق، وإنما يرزقهم بما هو أصلح لهم وأنفع[٢].

إن لفظ القيد: (غدقًا) الذي نُعِت بها لفظ: (ماء) ناسب المقام ولاءم السياق، فما كان لغيره من تلك المفردات التي تقاربه في الدلالة أن يؤدي مؤدّاها، ولا أن يفيض بتلك الدلالات التي فاض بها، وهنا تتجلى صورة من صور الإعجاز القرآني. فـ"أسلوب القرآن يتألق في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كل حيث يؤدي معناه في دقّة فائقة...فكل لفظة من ألفاظ القرآن وُضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا نجد فيه ترادفًا، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنىً جديدًا، ولها في النفس إيحاءاتٌ خاصة"[٣].

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي في مقصد سورة: (الجن): "ومقصودها: إظهار شرف هذا النبي – صلى الله عليه وسلم –، حيث لين له قلوب الجن والإنس وغيرهم، فصار مالكًا لقلوب المجانس وغيره؛ وذلك لعظمة هذا القرآن، ولطف ما له من عظيم الشان"[٤].

---

[١] دلائل الإعجاز، (١/ ٧٢).

[٢] ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، (١٢٣٠/١٥)، دار الفكر العربي – القاهرة، بدون تاريخ.

[٣] إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د/ حفني محمد شرف، (ص٢٢٢)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، ١٩٧٠م.

[٤] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ١٢٧).

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (غدقًا)، يمكن القول: بأنَّ الله – تعالى – جعل الماء المقيد بنعت: (غدقًا) جزاءً لمن اتبعوا الطريقة، والتي هي طريقة الاستقامة، التي دل عليها سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –، "وَالاسْتِقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقَةِ: اسْتِقَامَةُ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ... وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقَةِ، تَمْثِيلٌ لِهَيْئَةِ الْمُتَّصِفِ بِالسُّلُوكِ الصّالِحِ وَالِاعْتِقادِ الْحَقِّ بِهَيْئَةِ السَّائِرِ سَيْرًا مُسْتَقِيمًا عَلَى طَرِيقَةٍ، وَلِذَلِكَ فَالتَّعْرِيفُ فِي الطَّرِيقَةِ لِلْجِنْسِ لَا لِلْعَهْدِ"[1].

فالعلاقة واضحة بين الماء الغدق، الذي يُسقاه من يستقيم على طريقة الاستقامة التي يدل عليها سيدُنا محمد – صلى الله عليه وسلم –، والذي تقصد السورة إظهار شرفه عند الله – تعالى –؛ حيث لين له قلوب الإنس والجن.

---

[1] تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (٢٩/ ٢٣٨).

المبحث الثالث: (القيد بالنعت في سياق الوعيد)

وفيه ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (صديد)

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: ١٣-١٧] .

- **المعنى:**

أن الذين كفروا حَلَفوا على أن يكون أحد الأمرين، فَأَوْحى رَبُّهُمْ إلى رسلهم: لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ أرضهم وديارهم، ذلك لِمَنْ خافَ الموقف الذي يقوم فيه العباد للحكم بينهم يوم القيامة وَخافَ وعيدي بالعذاب. وَاسْتَفْتَحُوا فسألوا الله القضاء بينهم وبين أعدائهم ، فأفلح المؤمنون، وخاب كل عاتٍ متكبر[١].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (صديد).**

القيد ورد في سياق حديث الآيات عن عاقبة الذين كفور وعتوا وطغوا، بأن خيَّروا رسلهم بين خيارين كلاهما مُر: (لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ) فأتى القيد: (صديد) ملائمًا للسياق.

كما أتى مطابقًا للمقام؛ إذ المقام مقام وعيد وتهديد للكافرين الذين تجاوزوا في حق رسلهم – عليهم السلام –، ففي قيد الماء بالنعت: (صديد) ما يؤكد على عقاب هؤلاء الكافرين ومجازاتهم جزاءً وفاقًا، فـ"الصَّديدُ: الدَّمُ المُختلطِ بالقَيْح في الجُرْحِ"[٢]، وفي سقيهم بالصديد إيلام لهم وعذاب معنوي فوق ذلك العذاب الحسي، كما أن في سقيهم عنوة عنهم مبالغة في ذلك الاستهزاء والتنكيل على ما اقترفوه، إذ حاولوا بالإيذاء والتجاوز إرغام رسلهم على أحد أمرين: الإخراج من الأرض، أو العودة في ملتهم؛ فإن

---

[١] ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٣/ ١٩٥).

[٢] كتاب العين، (٧/ ٨٠).

الجزاء من جنس العمل. فـ"السقي: لما لا كلفة فيه"[١] ومعناه في الآية – والله أعلم بمراده – إرغام وإكراه لا تبقى معه رغبة أو إرادة.

كما أن لفظ: (يُسقى) تدل على تجدد الفعل واستمراره، فهم لا يُسقون مرة واحدة فحسب، ولكنها رحلة عذاب متجددة، فالاسم يفيد الثبوت، والفعل يفيد التجدد والحدوث فإذا قلت: (خالد مجتهد) أفاد ثبوت الاجتهاد لخالدٍ، في حين أنك إذا قلت: (يجتهد خالد) أفاد حدوث الاجتهاد له بعد أن لم يكن، وكذا إذا قلت: (هو حافظ) أو (يحفظ) و(حافظ) يدل على الثبوت، و(يحفظ) يدل على الحدوث والتجدد، ونحوه: (هو خطيب) أو(يخطب)، وسر ذلك أن الفعل مقيد بالزمن في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة فهو أشمل وأعم[٢].

أما عن قوله تعالى: (يتجرعه) فهو من جَرعَ الماء واجْترعَه جَرعًا واجْتراعًا، فإذا تابع الجَرْع مرة بعد أُخرى كالمتكاره، قيل: تَجَرَّعه، فمعنى التَّجَرُّع: تناول المشروب جَرْعة جَرْعة على استمرار، وهو معنى قول ابن عباس: يريد بالكُرْه. ولا يُسيغه لكراهته لذلك الشراب[٣]. وفي ذلك ما يعكس هيئة ذلك الماء البغيض، فلا يمكن أن يشربه الإنسان طوعًا، وأنَّى له ذلك، والماء صديد تأباه النفس، ويَمُجُّه الذوق.

ولا يخفى ما في صيغة الإفراد: (يُسْقَى) من الدلالة على خصوصية السَّقْي وانفراد ذلك المعذَّب بالسَّقْي، ولا شك أن البلاء كلما كان أخص كان أوجع وأشد إيلامًا. كما لا يخفى ما في: (مِنْ) في قوله تعالى: (من ماء صديد) من الدلالة على أن هذا الماء موفور بكثرة، فكلما أدرك العطش ذلك المعذَّب وَجَد ذلك الماء موفورًا! فهو معين لا ينتهي! وفي ذلك من العذاب ما يوافق جنس عمل هؤلاء القوم.

---

[١] معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتابي العسكري والجزائري، رَتّبه وبَوَّبه الشيخ/ بيت الله بيات، (ص٢٧٩)، مؤسسة النشر الإسلامي – قُم، ط الأولى، ١٤١٢هـ.

[٢] ينظر: معاني الأبنية في العربية، (ص٩).

[٣] ينظر: التفسير البسيط، (١٢/ ٤٣٣).

• **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي عن مقصد سورة إبراهيم: "ومقصودها: التوحيد، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله؛ لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه، المؤدي إليه"[١].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (صديد)، ندرك أن علاقة قوية تلك التي تربط بين لفظ القيد ومقصود السورة؛ فقيد الماء بالوصف: (صديد) فيه عقاب ملائم لأولئك المشركين الذين أنكروا التوحيد، وأنكروا الكتاب الذي هو غاية البلاغ إلى الله، بل إنهم أسرفوا في الإنكار والتكذيب فقالوا لرسلهم: (لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا)، ولما كانوا على ذلك النهج الذي هو غاية في القُبح، كان جزاؤهم ذلك الماء الصديد الذي هو غاية في القبح، إنه قُبح يوافق حالهم القبيح.

الموضع الثاني: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ)

يقول تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٨-٢٩] .

• **المعنى:**

واصبر نفسك يا محمد مع أصحابك الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي بذكرهم إياه، لا يُريدون عرض الدنيا، ولا تَعْدُ عيناك عن هؤلاء المؤمنين إلى صناديد المُشركين. ولا تُطِعْ من شغَلْنا قلبه عن ذكرنا، واتَّبع هواه، وكان أمرُه ضَياعًا. وقل الحقُّ من عندِ ربكم، فإن شئتم فآمِنوا، وإن شئتُم فاكْفُروا، فإنكم إن كفرتم فقد أعدَّ لكم ربُّكم على كفرِكم به نارًا أحاط بكم سُرَادِقُها، وإن آمنْتُم به وعمِلتُم بطاعته، فإنَّ لكم ما وصَف اللَّهُ لأهل طاعتِه، وإن يستغث هؤلاء الظالمون يومَ القيامة في النَّارِ من شدَّةِ ما بهم من العطشِ،

---

[١] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ١٩٨).

فيطلُبوا الماء، يُغاثوا بماءٍ مائعٍ قد أوقد عليه حتى بلغ غاية حره، أو لم يكن مائعًا، فانْماع بالوقود عليه، وبلغ أقصى الغاية في شدة الحر، وهو يشوي الوجوه، وهو بئس الشراب وساء النار مرتفقًا، يبيت فيه أهلها على مرافقهم لا يأتيهم نوم[١].

• **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۢ).**

يقول النحاة: "كالمهل صفة لماء، وجملة: (يشوي الوجوه) صفة ثانية أو حال، والوجوه مفعول به"[٢].

بمراجعة السياق ندرك أن القيد بالنعت سيق في الحديث عن الظالمين وما أعد الله – تعالى – لهم من عذاب، وفي إغاثتهم حال شدة عطشهم بماء هذا وصفه ما يؤكد على غضب الله – تعالى – عليهم.

وعن دلالة: (المُهْل) يقول الزبيدي: "المُهْلُ – أَيضًا –: مَا ذابَ من صُفْرٍ أَو حَديدٍ، وَهَكَذَا فُسِّرَ فِي التّنزيل، واللهُ أَعلَمُ، وَهُوَ قولُه تَعَالَى: (يُغاثُوا بماءٍ كالْمُهْلِ)، وسُئِلَ ابنُ مَسعودٍ عَن المُهْلِ، فأَذابَ فِضَّةً فجعلَتْ تَمَيَّعُ وتَلَوَّنُ، فَقَالَ: هَذَا مِمَّن أَشْبَه ما أَنْتُمْ راؤونَ بالمُهْلِ، وَقَالَ بعضُهُم: هُوَ النُّحاسُ المُذابُ، قيل: هُوَ الزَّيْتُ عامَّتُهُ أَو دُرْدِيُّهُ[٣]،"[٤].

وعن معنى: (المهل) يقول الطبري: "المُهلُ ... كلُّ مائعٍ قد أُوقِد عليه حتى بلَغَ غايةَ حرِّه، أو لم يكنْ مائعًا، فانْماعَ بالوَقودِ عليه، وبلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ الحرِّ"[٥]. وفي إغاثة الظالمين بهذا الشراب تعذيب وإيلام لهم، ويكتمل مشهد التعذيب والإيلام، بالنعت الثاني: (يشوي الوجوه) فصناديد مكة قد طلبوا من النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يخصهم بمجلس بعيدًا عن الضعفاء والفقراء والعبيد[٦]، فلما طلبوا ذلك تمييزًا لهم عن

---

[١] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٣٦/١٥ وما بعدها).

[٢] إعراب القرآن وبيانه، (٥/ ٥٨٧).

[٣] " دُرْدِيّ [مفرد]: ما رسَبَ من عكر العَسَل والزَّيت ونحوهما من السَّوائل". معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار، (١/ ٧٣٦)، عالم الكتب، ط الأولى، ٢٠٠٨م.

[٤] تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تح/ جماعة من المختصين، (٣٠/ ٤٣١)، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، بدون تاريخ.

[٥] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (١٥/ ٢٥١).

[٦] ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، د/ عبد السلام عبد الشافي محمد، (٣/ ٥١٢)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

غيرهم من سواد الناس، كان جزاؤهم الموافق لفعلهم أن يُمَيَّزُوا عن سائر أهل النار عند استغاثتهم من شدة العطش بذلك الشراب الفريد، إنه ماء كالمهل يقترب من وجوههم فيشويها فيميزهم عن غيرهم؛ ذلك أنه يشوي وجوههم من حرِّه. ويرى الرازي: أن اختصاص الإغاثة بماء منعوت بهذا النعت فيه إيلام معنوي فوق ذلك الإيلام الحسي، يقول: "وَقَوْلُهُ تَعالَى: يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ وَارِدٌ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِهْزَاءِ"[١].

فالأصل في الماء أن يكون باردًا يَروي غُلة الشارب، أما أن يكون الماء كالمهل يشوي الوجوه، فذلك على خلاف ما يتوقع، إنه رد غريب غرابة طلبهم، حين طلبوا طلبًا غريبًا على الفطر السليمة والأنفس السوية.

وبهذا، تتجلى بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالوصفين: (كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۢ) في مطابقة مقتضى حال هؤلاء المشركين، ومن ثَمَّ كان اعتبار البيان القرآني، لخَصوصية القيد بهذين الوصفين.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي عن مقصد سورة: (الكهف) "ومقصودها: وصف الكتاب بأنه قيم، لكونه زاجرًا عن الشريك الذي هو خلاف ما قام عليه الدليل في (سبحان)، من أنه لا وكيل دونه، ولا إله إلا هو"[٢].

وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۢ) يمكن القول: بأن وصف الماء الذي يغاث به المشركون بأنه كالمهل، والتأكيد على أنه بئس الشراب:(كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۢ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ) يلائم فعل هؤلاء القوم فقد فعلوا بئس الفعل؛ إذ أشركوا مع الله – تعالى – غيره، على الرغم من أنه – سبحانه وتعالى – أنزل لهم كتابًا قيمًا زاجرًا عن الشرك، بما ساق الله – تعالى – لعباده فيه من الترهيب الذي منه ذلك العذاب، الذي جاء في قوله تعالى: (وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۢ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ).

---

[١] مفاتيح الغيب، الرازي، (٢١/ ٤٦٠)، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ.

[٢] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ٢٤٣).

الموضع الثالث: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (منهمر)

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر: ٩-١٢].

- **المعنى:**

يقول تعالى: كذَّبَت يا محمدُ قبلَ هؤلاء الذين كذَّبوك مِن قومِك، قومُ نوحٍ، فكذَّبوا عبدنا نوحًا وقالوا: اسْتُطِير جُنونًا. فدعا ربَّه: إن قومي قد غلَبوني، فانْتَصِرْ منهم بعقابٍ مِن عندِك. ففتَحْنا – لما دعانا نوحٌ مستغيثًا بنا على قومِه – أبواب السماء بِمَاءٍ متدفِّق. وأَسَلْنا الأرضَ عُيُونًا بالماءِ. فالتقى الماءُ والماءُ.[1]

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (منهمر):**

وبمراجعة السياق الواقعي، يطالعنا ما روي "عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –؛ قال: سأل أهل مكة النبي – صلى الله عليه وسلم – آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فنزلت: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)، ... [صحيح]"[2]. والآيات في مطلع سورة القمر تتناول حال المشركين الذين كلما رأوا دليلًا على صدقه – صلى الله عليه وسلم – يُعرضوا ويقولوا ما شاهدناه سحر دائم، ثم تَذْكُر ما كان من قوم نوح – عليه السلام –، فدعا عليهم فاستجاب الله دعاءه، فكان ما جاء في قول الله: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ ...﴾ [القمر: ١١] فأتى عقابهم في سرعة خاطفة، وقد أتت الفاء تصور لنا تلك السرعة الخاطفة، (ففتحنا) والفتح أسند لـ(نا) الدالة على الفاعلين، وهي تعود على الذات العليَّة، ذات القدرة المطلقة، والإرادة النافذة، التي لا يُرَد قضاؤها ولا يؤخر أمرها. والباء في قوله تعالى: (بماء) للآلة، والمعنى: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، فجعل الماء كأنه آلة للفتح، مما يوحي

---

[1] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٢/ ١١٩وما بعدها).

[2] الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي، محمد بن موسى آل نصر، (٣/ ٣٠٠)، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية، ط الأولى، ١٤٢٥هـ.

بالسرعة الخاطفة، كما تقول: فتحت الباب بالمفتاح، ويجوز أن تكون للحال، أي: ملتبسة بماءٍ منهمر[١].

أما عن لفظ: (منهمر) فيقول الخليل: "الهَمْرُ: صَبُّ الدَّمْعِ والماءِ والمَطَرِ، وهَمَر الماءُ، وانهمر فهو هامِرٌ مُنْهَمِرٌ. والفَرَسُ يَهْمِرُ الأرضَ هَمْرًا، وهو شدَّة حَفْرِه الأرضَ بحوافِرِه"[٢]. والرازي يصف هيئة المطر في ذلك اليوم، فيقول: "والِانْهِمَارُ: الِانْسِكَابُ وَالِانْصِبَابُ صَبًّا شَدِيدًا، وَالتَّحْقِيقُ فِيهِ: أَنَّ الْمَطَرَ يَخْرُجُ مِنَ السَّمَاءِ الَّتِي هِيَ السَّحَابُ خُرُوجَ مُتَرَشِّحٍ مِنْ ظَرْفِهِ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَانَ يَخْرُجُ خُرُوجَ مرسل خارج من باب"[٣].

والمعنى المحوري للانهمار: انصباب المتجمع من المائع من مجمعه بقوة: كالمطر والدمع[٤]. وقد أتى القيد بـ(منهمر) ملائمًا للمقام، فالمقام مقام غضب الحق – سبحانه – على هؤلاء الذين أسرفوا في طغيانهم، فكذَّبوا سيدنا نوحًا – عليه السلام – واتهموه بما ليس فيه، فدعا عليهم فأجابته السماء، وتبدو دقة القرآن المتناهية في اصطفاء المفردات، فـ"ألفاظ القرآن تأتى عنيفة قوية في مقام التهديد والوعيد وما أشبه ذلك، ورقيقة عذبة في الترغيب والتبشير وما أشبههما، هادئة ثرية في مقام التشريع والتوجيه وما قاربهما"[٥].

- **مناسبة القيد للمقصد العام للسورة:**

وعن مقصد سورة: (القمر) يقول البقاعي: "ومقصودها: بيان آخر النجم في أمر الساعة، من تحققها وشدة قربها"[٦]. وبالتأمل ندرك علاقة قوية تربط بين المقصد العام للسورة وقيد لفظ: (ماء) بالقيد: (منهمر)؛ فإذا كان المقصد العام للسورة يدور حول

---

[١] ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/محمد عبد الخالق عضيمة، (٢/ ١٦)، دار الحديث – القاهرة، بدون تاريخ.

[٢] كتاب العين، (٤/ ٥٠).

[٣] مفاتيح الغيب، (٢٩/ ٢٩٦).

[٤] ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم، (٤/ ٢٣٢٠).

[٥] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعني، (١/ ٢٦٦)، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٩٩٢م.

[٦] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٣/ ٣٩).

تحقق الساعة وشدة قربها، فالقيد: (منهمر) سيق في مساقٍ بُني على التعقيب والسرعة؛ فقد أتت الفاءات تربط عُرى الكلام وتَشد أجزاءه، تأمل: (فكذبوا – فدعا – فانتصر – ففتحنا) وإذا كان مقصد السورة يتناول شدة قرب الساعة، فإن وصف: (منهمر) الذي قيد به الماء الذي عوقب به قوم سيدنا نوح – عليه السلام – ملائم لذلك المقصد، فـ(منهمر) اسم فاعل، فالماء صار منهمرًا بذاته بقوة أودعها الله – تعالى – فيه، فصار يتدفق بطاقة ذاتية، جعلته قادرًا على فعل الانهمار، وفي اصطفاء البيان القرآني لقالب اسم الفاعل وصفًا للفظ: (ماء) بلاغة معجزة، فهي تؤدِّي دلالة لا تؤدَّى بدونها، يقول د/ فاضل السامرائي: "اسم الفاعل – كما يقول النحاة – يدل على الحدث والحدوث وفاعله. ويقصد بالحدث معنى المصدر، وبالحدوث ما يقابل الثبوت، فـ(قائم) – مثلًا – اسم فاعل يدل على القيام وهو الحدث، وعلى الحدوث، أي: التغيُّر، فالقيام ليس ملازمًا لصاحبه، ويدل على ذات الفاعل، أي: صاحب القيام"[1].

[1] معاني الأبنية في العربية، (ص٤١).

المبحث الرابع: (القيد بالنعت في سياق تصوير الدنيا)

وفيه موضعان:

الموضع الأول: بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) في سورة يونس.

يقول تعالى:﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤] .

- **المعنى:**

ضرب الله مثلًا للحياة في هذه الدار الفانية، فقال: مثلها كمطر أنزلناه من السماء، فالتف بذلك الماء كل نوع من النبات، حتى إذا تزينت الأرض، وظن أهلها أنهم قادرون على نباتها الذي أنبتته، أمرنا بهلاكها، فَجَعَلْناها حَصِيدًا، كأن لم تعمر بالأمس[١].

- **بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ).**

الآية التي ورد بها هذا القيد، مبناها على سرعة الأحداث وتعاقبها، فالله – تعالى – "ضَرَبَ مَثَلًا عَجِيبًا غَرِيبًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا، تُذَكِّر مَنْ يَبْغِي فِيهَا عَلَى سُرْعَةِ زَوَالِهَا وَانْقِضَائِهَا، وَأَنَّهَا بِحَالِ مَا تُعِزُّ وتسر، تضمحل ويؤول أَمْرُهَا إِلَى الْفَنَاءِ"[٢]، وقد عرضت الآية مثلًا للحياة الدنيا من بدايتها حتى نهايتها في آية واحدة.

وفي القيد بالوصف: (أنزلناه من السماء) ما يناسب تلك السرعة التي تؤكدها الآية، فلا شك أن نزول الماء من السماء فيه من السرعة ما لا يخفى، وما كان لهذا المعنى أن يتحقق لو قيل في غير القرآن الكريم: (كماء المطر).

كما أن مادة: (نزل) يدور معناها حول: الهبوط والوقوع، يقول ابن فارس: "النُّونُ وَالزَّاءُ وَاللَّامُ: كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ وَوُقُوعِهِ."[٣] وإذا كان النزول من السماء، كان أسرع، وإذا كان منزله هو الحق – سبحانه وتعالى – كان على ذلك أقدر.

---

[١] ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (٢/ ٥٤٣).

[٢] البحر المحيط في التفسير، (٦/ ٣٦).

[٣] مقاييس اللغة، (٥/ ٤١٧).

ولما كان المقام مقام بيان حقيقة الحياة الدنيا وسرعة زوالها وانقضاء لذائذها، كانت البلاغة في قيد الوصف بـ(أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ).

لقد اعتبر البيان القرآني خصوصية اصطفاء لفظ القيد بالنعت: (أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) في أنها وصف ورد بطريق الكناية عن موصوف وهو المطر، للإشارة إلى أن الحياة الدنيا شيء هين على الله – تعالى– فهي ليست إلا شيئًا من تلك الأشياء التي خلقها الله – تعالى – كالمطر الذي ينزل من السماء.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي عن مقصد سورة يونس: "ومقصودها: وصف الكتاب بأنه من عند الله؛ لما اشتمل عليه من الحكمة، وأنه ليس إلا من عند الله – سبحانه –؛ لأن غيره لا يقدر على شيء منه. وذلك دالّ بلا ريب على أنه واحد في ملكه، لا شريك له في شيء من أمره"[1]. وعند محاولة إدراك المناسبة بين ذلك المقصد وقيد لفظ: (ماء) بالنعت: (أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ). يمكن القول: بأنه إذا كان مقصد السورة وصف الكتاب بأنه من عند الله؛ لما اشتمل عليه من الحكمة، فإن من الحكمة التي اشتمل عليها الكتاب، ضرب ذلك المثل الذي يُبَصِّر العباد بحقيقة الحياة الدنيا، وأنها سريعة الزوال؛ حتى لا يغتروا بمفاتنها، فهي كماء أنزله الله من السماء إلى نهاية الوصف المذكور في الآية الحكيمة.

---

[1] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ١٦٤).

الموضع الثاني:

بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) في سورة الكهف.

يقول تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: ٤٥].

- **المعنى:**

يقول تعالى: اذكر لهم ما تُشبهه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ، أي: فالتفّ بسببه وتكاثف، حتى خالط بعضه بعضًا، فشبَّ وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة، فَأَصْبَحَ أي: بعد ذلك الزّهو جافًّا يابسًا مكسورًا، وهكذا حال الدنيا، وَكانَ اللَّهُ على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة[١].

- بلاغة قيد لفظ: (ماء) بالنعت: (أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ).

وبتتبع السياق ندرك أن الكلام عن صناديد مكة الذين طلبوا من النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يخصهم بمجلس بعيدًا عن الضعفاء والفقراء والعبيد[٢]، فرد القرآن عليهم بما يحسم الأمر:﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف: ٢٩] ثم ضرب لهم مثلين: أولهما:﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ...﴾ [الكهف: ٣٢]. ثانيهما: (وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا...﴾ [الكهف: ٤٥].

فأتى المثَلان في مقام الرد على المتكبرين، ولذلك تتجلى بلاغة القيد بجملة النعت: (أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) في أنها وصف ورد بطريق الكناية عن موصوف وهو المطر، ولا يليق بعاقل راشد أن يتكبر وقد علم أن الحياة الدنيا بهذا الوصف، ماء أنزله الله من السماء، ثم يقول تعالى: (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا) أي: فأصبَح نباتُ الأرضِ يابسًا مُتفَتِّتًا، (تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) أي: تُطيِّرُه الرياحُ وتُفرِّقُه[٣].

---

[١] ينظر: محاسن التأويل، القاسمي، محمد باسل عيون السود، (٧/ ٣٨)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤١٨هـ.

[٢] ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٣/ ٥١٢).

[٣] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (١٥/ ٢٧٢).

ويكتمل المعنى بما عُطف على جملة النعت بالفاء، وهما هاتان الجملتان: الأولى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾، والثانية: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾.

فالجملتان عطفتا بالفاء، تلك التي تفيد التعقيب والسرعة، يقول الزجاجي: "الفاء تكون عاطفة، تدل على أن الثاني بعد الأول ولا مُهلة"[1] وفي عطف الجملتين على القيد بالفاء ما يعطي معنى التعقيب والسرعة في انقضاء تلك الحياة، التي لم يدرك المتكبرون حقيقتها، فظنوها خالدة، فسعوا لتلبية حظوظ أنفسهم.

إن القيد بالوصف: (أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) وما استتبعه من تراكيب، أقنع المتلقي بحقيقة الحياة الدنيا وسرعة انقضائها، ففي القيد تأكيد على حقيقة الحياة الدنيا، وإقناع للعقول المتلقية وتأثير في الأفئدة.

- **مناسبة لفظ القيد للمقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي عن مقصد سورة: (الكهف) "ومقصودها: وصف الكتاب بأنه قيم، لكونه زاجرًا عن الشريك ... وقاصًّا بالحق أخبار قوم قد فضلوا في أزمانهم"[2].

والعلاقة بين نعت لفظ: (ماء) بالقيد: (أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) ومقصود سورة الكهف: أن الله الذي أنزل الكتاب القيم من السماء، هو الذي أنزل ذلك الماء من السماء، وإذا كان الكتاب يحيي القلوب، فذلك الماء يحيي الأرض بعد موتها.

وأنه إذا كان وراء ضرب المثل بالماء الذي أنزله الله من السماء، الدعوة إلى المنهج القيم بما فيه من هداية المشركين المتكبرين الذين طلبوا من النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يخصهم بمجلس بعيدًا عن الفقراء والضعفاء، فإن من المقصود العام للسورة وصف الكتاب بأنه قيم، كما أن من مقصودها قصَّ أخبار قوم قد ضلوا في أزمانهم، ومنهم أولئك الذين وصل بهم الكبر إلى حدِّ أنهم طلبوا من النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يخصص لهم مجلسًا؛ كي لا يُجالسوا الفقراء والضعفاء.

---

[1] حروف المعاني والصفات، (ص٣٩).

[2] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، (٢/ ٢٤٣).

الخاتمـــــة:

وفيها أهم نتائج البحث، وهي كما يلي:

- وراء أَكَمَة القيود في القرآن الكريم بلاغة غضَّة يانعة، يجب على الباحثين في البلاغة القرآنية أن يقطفوا ثمارها؛ لتضاف إلى صور بلاغة القرآن الكريم.
- من صور إعجاز القرآن الكريم اعتبار خَصوصية قيد لفظ: (ماء) بنعوت متنوعة، اقتضتها سياقات ومقامات بعينها.
- للسياق دوره البارز في الوقوف على بلاغة اعتبار البيان القرآني لخَصوصية قيد لفظ: (ماء) بالنعت في القرآن الكريم.
- أتت ألفاظ النعوت المقيِّدة للفظ: (ماء) والتي اعتبرها بيان القرآن الكريم، مطابقة للمقامات والسياقات التي سيقت فيها، بل ومقاصد السور التي أتت بها.
- قيد لفظ: (ماء) بالنعت في القرآن الكريم في أربعة سياقات، هي: (القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية)، و(القيد بالنعت في سياق الوعد)، و(القيد بالنعت في سياق الوعيد)، و(القيد بالنعت في سياق تصوير الدنيا).
- في القيود التي اصطفاها بيان القرآن الكريم، ما يعكس دقَّة بيان القرآن الكريم في اصطفاء ألفاظ تلك القيود، والتي لا يمكن لغيرها من مقارباتها في الدلالة أن تَسد مَسدها.
- النعوت التي قُيد بها لفظ: (ماء) في القرآن الكريم تنوعت أساليبها ما بين الحقيقة والمجاز، حسب ما يقتضيه المقام.
- النعوت التي قُيد بها لفظ: (ماء) في القرآن الكريم، تنوعت صيغها ما بين مستعمل في موضعه، وخارج على خلاف ما يقتضيه الظاهر، باعتبار صيغة مخالفة للتي كان يمكن أن يُؤَدَّى بها أصل المراد.

ثَبَت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي، محمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية، ط الأولى، ١٤٢٥هـ.
- الأسرار البلاغية للمخالفة بين الصيغ في الذكر الحكيم، د/ سلامة سيد سعد، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد: الثلاثون، الجزء: الثاني، أكتوبر ٢٠١١م.
- الأصول في النحو، ابن السراج، تح/ عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة – بيروت، بدون تاريخ.
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د/ حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، ١٩٧٠م.
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص، ط الرابعة، ١٤١٥هـ.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تح/ صدقي محمد جميل، الناشر دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠هـ.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الشيخ/ عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ـ القاهرة، ٢٠٠٥م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، تح/ جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، بدون تاريخ.
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس،١٩٨٤هـ.
- التفسير البسيط، الواحدي، تح/ أصل تحقيقه في: (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط الأولى، ١٤٣٠هـ.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، د/ عائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، دار المعارف – القاهرة، ط السابعة، بدون تاريخ.

- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تح/ سامي محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض، ط الثانية، ١٩٩٩م.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة، بدون تاريخ.
- التفسير المنير، الزحيلي، دار الفكر – دمشق، دار الفكر المعاصر – بيروت، ط الأولى، ١٩٩١م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط الأولى، ١٩٩٨م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تح/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، ط دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط الأولى، ٢٠٠١ م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تح/ أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط دار الكتب المصرية – القاهرة، ط الثانية، ١٩٦٤م.
- جمهرة اللغة، ابن دريد، تح/ رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط الأولى، ١٩٨٧م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، تح: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤١٣هـ .
- حروف المعاني والصفات، للزجاجي، تح/ علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٩٩٢م.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث – القاهرة، بدون تاريخ.
- دلالات التراكيب – دراسة بلاغية، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبه . القاهرة ، ط الثانية، ١٩٨٧م.
- دلائل الإعجاز، للإمام/ عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود شاكر، ط المدني – القاهرة، دار المدني – جدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ.

- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، بدر الدين ابن مالك، تح/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى،٢٠٠٠م.
- شروح التلخيص، ط دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، بدون تاريخ،
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط الرابعة، ١٩٨٧م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.
- علل النحو، الزجاجي، تح/ د. مازن المبارك، دار النفائس – بيروت، ط الخامسة، ١٩٨٦م.
- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.
- كتاب العين، الخليل بن أحمد، تح/ د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون تاريخ.
- كتاب المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة، ٢٠١٣م.
- لسان العرب، ابن منظور، تح/ عبد الله الكبير وأصحابه، ط دار المعارف – القاهرة، بدون تاريخ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت،١٤٢٠هـ.
- محاسن التأويل، القاسمي، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، د/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، مكتبة المعارف – الرياض، ط الأولى، ١٩٨٧م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

- معاني الأبنية في العربية، د/ فاضل صالح السامرائي، ط الثانية، دار عمار – الأردن، ٢٠٠٦م.
- معاني القرآن، الفراء، تح/ أحمد يوسف النجاتي وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط الأولى، بدون تاريخ.
- المعجم الاشتقاقي المؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم، د/ محمد حسن جبل، مكتبة الآداب – القاهرة، ط الأولى، ٢٠١٠م.
- معجم البلاغة العربية، د/ بدوي طبانة، دار المنارة – جدة، ط الثالثة، ١٩٨٨م.
- معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتابي العسكري والجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقُم، رَتّبه وبَوَّبه الشيخ/ بيت الله بيات، ط الأولى، ١٤١٢هـ.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار، عالم الكتب، ط الأولى، ٢٠٠٨م.
- مفاتيح الغيب، الرازي، ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الثالثة،١٤٢٠هـ.
- مفتاح العلوم، السكاكي، تعليق/ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الثانية، ١٩٨٧م.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، تح/ عبد السلام هارون، ط دار الفكر، ١٩٧٩م.
- المقدمة الجزولية في النحو، الجزولي، تح/ د. شعبان عبد الوهاب محمد، مطبعة أم القرى، ودار الغد العربي، بدون تاريخ.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، تح: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ/ علي محمد معوض، الدكتور/ أحمد محمد صيرة، الدكتور/ أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور/ عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٩٩٤م.

ثَبَت الموضوعات

الموضوع	صفحة
الملخص باللغة العربية.	٨٧
الملخص باللغة الإنجليزية.	٨٧
مقدمة	٨٨
مهاد نظري: تحرير المصطلح	٩١
المبحث الأول: (القيد بالنعت في سياق الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية).	٩٣
المبحث الثاني: (القيد بالنعت في سياق الوعد).	١١٦
المبحث الثالث: (القيد بالنعت في سياق الوعيد).	١٢٥
المبحث الرابع: (القيد بالنعت في سياق تصوير الدنيا).	١٣٣
الخاتمة.	١٣٧
ثَبَت المصادر والمراجع.	١٣٨
ثَبَت الموضوعات.	١٤٢